امرأة على أجنحة الرغبة

سلمى بو صوف



رواية

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

سلمى بوصوف

امرأة على أجنحة الرغبة

رواية

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

الكتـــاب: امرأة على أجنحة الرغبة
الموضوع: روايـــة
تألـــيف: سلمـــى بوصـــوف

ISBN 978-9953-594-96-5

الطبعة الأولى: 2018
تصميم الغلاف:
القسم الفني في مؤسسة الرحاب الحديثة
تصميم وإخراج داخلي: حسين طه
صورة الغلاف: الفنان محمد سعود

هـاتـف: 00961 3 359788 تلفاكس:00961 7 241032
ص. ب 11/3847 - بيروت - لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com

الفصل الأول

طبول الذاكرة

"إن الإنسان يمرض بسبب الذكريات"

فرويد

"سيتألم المرء أقل ما يمكن من جراء الأماني المخفقة عندما يكون قد درب خياله على تقبيح الماضي"

نيتشه

"لا حدث يحدث بالفعل إذا لم يدوّن"

فرجينيا وولف

1

صوت صفير الريح، إلى جانب الظلام الدامس الذي حل على المكان بسبب انقطاع الكهرباء يضفي على الغرفة وحشة غريبة. نباح الكلاب في الخارج يقطع صوت عواء الريح الحاد. أسمع من حين لآخر أصوات أقدام قادمة أو راجعة من المقهى المجاور، إنها بدون شك أقدام رجال، لأن النساء لا يرتدن المقهى في النهار ما بالك بعد منتصف الليل.

منذ أول يوم لي في هذه القرية وحتى بعد زواجي تعلمت أن أقتل الملل والوحدة بالإنصات لأصوات الطبيعة. هذه الليلة أيضا لا تختلف كثيرا عن الليالي التي سبقتها سوى أنني الآن أكون قد بترت العضو الذي كان يؤلمني. بعد مرور ثلاث سنوات من الجحيم الأسود القاتم..عزمت آخيرا على الرحيل.. إذ لم تعد لي طاقة بأوجاع جديدة...

ألقيت بدني المتعب فوق السرير، وأنين الوحدة و رائحة الذكريات يطغيان على المكان. فوجود طه ابني بقربي لا يلغي إحساس المرأة بداخلي التي تحتاج لحضن يدثرها ويحتويها. أغمض عيني فتتقاطع الصور والخيالات أمام جفني المطبقين عنوة. رغم مرور شهر على تلك الحادثة

إلا أنني لا زلت أعيش تحت سطوة الذكريات المؤلمة التي تنزل علي بثقلها في كل ليلة. منذ تلك الليلة وأنا أجر ورائي أذيال الخيبة...

هل تتذكر يا عدنان..؟

ما اقترفته في حقي تلك الليلة، بعد أن بلغت مرحلة أصبحت نفسي ممتلئة حتى الحافة مثل كأس تنقصها قطرة إضافية لتفيض، دافعا قويا وحاسما لأفك الأغلال التي أخرست روحي لسنوات..كنت منزوية مع غربتي في أحد أركان الغرفة بينما كان طه نائما، فجأة فتحتَ الباب ودخلتَ تترنح سكرا. توقعت الشر منك في تلك اللحظة وندمت لأني جئت معك إلى منزلك خصوصا وأننا تشاجرنا قبل خروجك. ذهبت مباشرة باتجاه المطبخ دون أن تكلمني، وأنا صامتة، منكمشة في مكاني، فجأة سمعت صوت تكسر الأواني، قبل أن تخرج عاقدا ناصيتك وتقبل نحوي كثور هائج. هل تذكر تلك الليلة الرهيبة؟ أخذت تصفعني بقوة جنونية، وجرجرتني على بلاط الأرض من شعري، لتهوى على أماكن مختلفة من جسدي النحيل بالرفس والركل... لحد الساعة لا أدري كيف تخلصت منك وهرولت إلى غرفة النوم، ثم أقفلت على نفسي مع طه الذي كان لا يزال نائما.

جلست طوال الليل أفكر في حياة الجحيم التي استنزفتني، في الأسباب التي جعلني أواصل السير على حواف الخيبة.. قبل الفجر، وبعد تأكدي من أنك نائم، حملت ابني وفتحت باب الغرفة ثم خرجت

هاربة لا هدف نصب عيني إلا النجاة منك.. ولا أعلم أي صدفة جعلت هاتفي وحقيبة يدي في طريقي.

خرجت من المنزل متأبطة فاجعتي، وخطواتي مثقلة بالألم. كنت أتحرك بدون وجهة محددة مشدوهة من هول ما رأيت منك! وكان أمامي خيارين لا ثالث لهما إما أن أذهب إلى منزل والديّ وأكون حين ذلك قد أعطيتهم الفرصة ليتدخلوا في شؤوني من جديد، أو أقصد منزل صديقتي هيام. بدون تفكير... ففضلت الخيار الثاني.

اتصلت بها لتنتظرني أمام البيت، بينما أخذت سيارة أجرة بسرعة إلى منزلها، حينما وصلت وجدتها بانتظاري. وما إن نزلت من السيارة حتى انهرت أمامها.

- انظري ماذا فعل بي.

قلت وأنا أبكي بحرقة، بينما أخذت هيام تربت على ظهري.

إثر زواجي، لم أدر أنني على موعد مع أحزان ستتلقفني وتهصر فؤادي العليل، ورغم مكابدة روحي للأوجاع، كنت أحاول ملأ الفجوة التي بدأت تتسع يوما بعد يوم، وأتجاهل ذلك الشرخ الهائل في عواطفنا، وذلك الجفاف الفادح في نظراتنا ولمساتنا..

باتت حياتي الزوجية هما أضيف لهمومي، ورغم الأدلة المقنعة والشاخصة بحضورها أمامي، لم أجرأ على حسم معاناتي. فكنت أتشبث تشبثا أعمى برجل يستهزئ من مشاعري ويسخر من هدوئي بل يهد كل

شيء جميل بداخلي.. فجعلت أفتش عن نقطة ضوء في قلب الحلكة، وأقنعت نفسي -عن قصد- أن ما يحدث بيننا محض خلافات عادية ستختفي مع الأيام. أه..كم كنت واهمة !

كانت الأحداث التي وقعت في الأيام الأولى لزواجنا كافية لإنهاء عمر علاقتنا، وكان ما تجرعته كافيا ليزلزل الأوهام التي ركنت إليها طوال هذه المدة. لا يمكنني أن أنسى مادمت حية صفعات يدك القوية على وجهي، ولازالت حرارة الدموع التي عبرت طريقها فوق خدي بينما تجلس لتدخن وتشرب نخب قسوتك نابضة بالحياة.. أما وأنت تهجرني وتتركني كالدمية التي يضعها صاحبها في زاوية من غرفته وينساها فكنت تحرض أحزاني كلها على الانتصار علي... كنت تتنفس قسوة وغرورا وبرودا، وكنت أنا أحتاج رجلا يفجر فيّ ينابيع شوق، وبراكين حب خالد، رجل أضع رأسي على كتفه كلما هدني تعب.

كنت قبل هذه الحادثة الأخيرة، أجلس إلى نفسي حائرة وضائعة. آخذ قرارات في الليل وفي النهار أتناساها، أعاهد نفسي بأن لا أعود لزيارتك وأخلف العهد خصوصا بعد أن أصبحت أما، ووعيت حجم الثقل الذي أحمله على كتفي. وفي الأوقات التي كنت أتجرأ فيها على ترك كل شيء ورائي والانفلات من قبضتك كنت أجد أن كل ما حولي يعيدني إليك، ويفرض علي المشي حافية القدمين في مسارب مليئة بالزجاج المكسور.

بعد طلوع الشمس ذهبت مباشرة عند أقرب محامي، وكانت تلك الخطوة منعطفا مهما في حياتي. لم أعلم أحدا من أقاربي، أردت أن يكون قراري نابعا من إرادتي الحرة والواعية دون تدخل من أحد. حاول والديّ بعد ذلك بشتى الأساليب ثنيي عن الطلاق، وضغطا علي وهما يرددان على مسمعي القصة المكرورة عن حرمان ابني من والده. كما تغنت أمي بتلك الشعارات القديمة التي تمجد صبر المرأة على هفوات زوجها والتي كانت تحفظها عن ظهر قلب. لكن الأوان كان قد فات لإقناعي وقررت في النهاية أن أضع حدا لسلطتك، كان قراري هذه المرة قاطعا كسيف، ولم يكن هناك مجال لفرصة أخرى.

هل كنت بحاجة إلى تلك التجربة المريرة لأتيقن من أنك لم تحبني يوما، ولم يغريك فيّ سوى هوسك بالشرف والمال والمناصب ؟

هل كان علي أن أعيش كل تلك الخيبات لأتجرأ على المطالبة بحريتي، بكرامتي وإنسانيتي.. وأشعر بقيمة الأيام التي عددتها وأنا أذبل يوما بعد يوم؟

كم كان يلزمني من المعاناة لأندم على الوقت الذي بعثرته على قارعة الانتظار؟ الانتظار.. ! أه...ما الذي كنت أنتظره منك بعد كل الضياع الذي تسببت لي به!

2

لا أذكر عدد المرات القليلة التي صادفت فيها (عدنان التازي) قبل زواجنا في منزل جدتي بحكم القرابة التي كانت تربطها بوالدته. ورغم أننا ننحدر من نفس القرية (هوارة) المتواجدة شرق إقليم (تاونات)، إلا أنه لم تتح لي يوما فرصة التعرف عليه عن قرب، أولا بحكم الرقابة المشددة المفروضة على الفتيات والنساء، وثانيا لأنه لم يكن يزور القرية إلا لماما نظراً لعمله بمديرية الأمن في (فاس)..

لا أنكر أني كنت متحرقة للتعرف على عدنان عندما تقدم لخطبتي، كان انطباعي عنه مختلفا في البداية. شيء ما كان يشدني إليه رغم أنه لم يكن ليثير انتباهي بشكله:كان عدنان طويل القامة، قوي البنية، له عينان حادتان وشعر أسود خشن. وأظن أنها زاد من فضولي اتجاهه، ذلك الغموض الذي يغلف ملامحه ونظراته، رجل يرتدي صمتا مبهما، يرمي بك في شراك الأسئلة الصعبة، ويغرقك في بحر الغموض الملتبس؛ وجدت نفسي في غفلة مني منتبهة لتقاسيم وجهه القوية، مثارة بكلماته التي لم تكن تخرج بتلقائية حيث تشعر أنه يحسب حسابا لأي كلمة يقولها

ولأي حركة يقوم بها. ربما كنت مأخوذة بهذا النوع من الرجال الذي لا يعطيك كل شيء دفعة واحدة، بل يجرجرك نحوه ببطء متعمد.

ما أذكره جيدا أنني قبل الزواج أخبرت أمي بترددي، وبأنني لا أريد التسرع قبل التأكد من مشاعري حياله. لكن كما خمنت أبدت انزعاجها واستنكرت موقفي غير المبرر. قالت بغضب وتوتر "إن العشرة الطويلة هي التي تجعل المرء يحكم على الآخرين وليس اللقاءات العابرة، وحتما ستحبينه عندما تتزوجان. أبوك يقول إن سمعته طيبة". ثم أضافت بعد شيء من الصمت وهي تربت على كتفي: "سوف تندمين إذا أضعتي هذه الفرصة التي لن تتكرر أين ستجدين رجلا بمواصفاته وأنت مدفونة في القرية لا يراك أحد؟".

لأننا نرتكب الحماقات في غفلة منا، والأخطاء أيضا تقترف حين يغيب المنطق. فبلا مقدمات ودون أن أعي جسارة الخطوة التي أنا مقدمة عليها تزوجت أنا وعدنان ذات صيف حيث تكثر المناسبات في القرية، وأقمنا طقسا احتفاليا بسيطا، كان طقسا خافتا خفوت مشاعرنا اتجاه بعضنا البعض. كنت عندها في الخامسة والعشرين من عمري، وكان عدنان يكبرني بعشر سنوات. تزوجت بكل حماقة المرأة المغلوبة على أمرها التي تعتقد أن لا بد لها من رجل يتزوجها ويحميها.

بدأت ترتيبات عقد القران بعد الخطبة بأسبوع.لم أستغرب حماس أمي وأبي وانهماكهما بكامل طاقتهما في إنهاء تفاصيل الزواج بسرعة. وكأن عدنان آخر الرجال على الأرض. فقد كانا ينتميان لمجتمع لا يقدر المرأة إلا إذا كانت زوجة وأم، أما أنا فقد كنت مستسلمة لما اعتبرته قدري: تركتهم يخططون لحياتي، يضربون المواعيد، يدعون من شاءوا من الأهل والأصدقاء وينتقون التفاصيل التقليدية بعناية..تركتهم في همومهم الصغيرة، وكأن لا شيء مما يحدث يخصني. هل كنت سعيدة؟ لا أدري. لكني لم أكن متحمسة لزواجي كما كان من المفروض أن أكون. كنت أدرك أنني أقامر بسعادتي مع رجل كل ما أعرفه عنه لا يتعدى تفاصيل واهية سمعتها هنا وهناك من أقاربه وأقاربي، وأرمي بنفسي في غياهب المجهول هربا من جحيم أسرتي، لكن لم أتوقع يوما أن الجحيم الحق هو ما كان ينتظرني في بيت باردة أركانه برودة الثلج.

أنجبت خلال ثلاث سنوات قضيتها مع عدنان طفلي الوحيد طه. وطوال تلك المدة لم يفارقني إحساسي بالسأم، شعوري بالإهمال وبعدم الاطمئنان. كنت أتمرغ في التعاسة وأنا أدرك تماما بأنني لست جميلة في عينيه، فلا أتعس من امرأة تفقد ثقتها بأنوثتها ! أما بعد الأيام الأولى للزواج فقد رأيت عدنان كما لم أره من قبل: متجهم المزاج، حاد الطبع، متعال، كثير الشكوى، لا شيء يعجبه في مظهري، يتذمر من أبسط

الأمور. أسأل نفسي الآن: هل هو الذي أبان عن حقيقته أم أنا التي كنت معصوبة العينين؟

كنا نسكن بحكم عملنا في منطقتين مختلفتين: هو في مدينة (فاس) وأنا في قرية نائية منسية، وهنا في هذه القرية المنفية مثل أيامي كنا نلتقي بعد أشهر من الغياب والوحدة، وبعد إلحاحي المتكرر، وكان كعادته يحتج بمهماته الرسمية وانشغالاته التي لا تنتهي وبضرورة بقائه في المدينة تحسبا لأي طارئ في العمل. لم يكن بوسعي أمام تبريراته الواهية إلا أن أدفن همومي في قلبي، وأبادر لكسر ذلك البعد المخيف الذي يفرقنا بعد يأسي من أن يحرك رماد عواطفه شوقه لي. فأطير صوبه محملة بآهاتي واحتياجي لأجد أنني أخطأت التوقع من جديد فليس الوقت هو ما نقيس به اللهفة بل إنها تقاس بدقات قلبنا...

كان شجارنا يحتد لأمور مادية أعتبرها تافهة ولا تستحق عناء التحدث فيها، بينما كان هو يجند قواه لإقناعي بأنني عاطفية ولا أفكر في مستقبلنا.

- أنا الرجل هنا ويجب عليك أن تطيعيني.
- أين المشكل في إرسال نقود لأسرتي؟
- لماذا لم تأخذي إذني؟
- هل أنت غاضب لأنني لم أخبرك أم لأني أرسلت النقود؟

إنهم ليسوا في حاجتك.

- لكن أمي طلبت مساعدتي لأنها تمر بضائقة مالية وأظن أن هذا السبب كاف. لا أستطيع أن أرى والدي في حاجتي ولا أساعدهما.

- فكري قليلا..عليك أن تكوني أنانية في بعض المواقف وعلى والديك أن يتحملا مسؤولية أفعالهما. رمقني بنظرة محمومة متعالية، وأمسك ذراعي بقوة وتابع يقول:

- آخر مرة تتصرفين بمثل هذا التصرف الأخرق.آخر مرة أسمعتني؟

كان ذلك بعد شهرين تقريبا من زواجنا، حين علم أنني قمت بإرسال مبلغ من المال لأمي.

كنت في أغلب تلك المواقف أكتفي بالصمت وأنا أنظر إليه وبعد فراغه من تهديداته أمضي إلى حجرة النوم... أقضي هناك ساعات طوال والحزن والدموع لا يفارقانني..

أسوء شيء قد نعيشه في علاقاتنا الإنسانية أن لا يشعر الطرف الآخر بأي ذنب اتجاهك، أو على أقل تقدير بأنه مخطئ في حقك، ويعتقد في المقابل بدوغمائية مقززة أنه دوما على صواب. وهذا بالضبط مكمن الخلل الذي كنت أستشفه من حديثنا في كل مرة أحاول فتح باب الحوار بيني

وبينه. وكلما مرت الأيام وتوالت الشجارات والتهديدات والنقاشات العقيمة، أزداد اقتناعا بأنني تزوجت الرجل الخطأ في الوقت الخطأ.

نحتاج في بعض الأحيان إلى ضربات نفسية عنيفة متتالية لكي نستفيق من أوهامنا ونبدأ العمر من جديد، كما نحتاج لوقت طويل كي نعيد التوازن الذي اختل في أرواحنا..

لقد عشت في الماضي أياما عصيبة، لأنني كنت عاجزة عن اتخاذ قرار حاسم أتجرأ فيه على رمي كل شيء ورائي. رغم الخناجر التي زرعت في خاصرتي...

أما الآن فقد صار الوقت لي، وخفق قلبي بين أضلعي لي، وجسدي ونظراتي الحالمة حتى هي لي..

معاناتي الآن صارت أخف وطأة حين بات بإمكاني أن لا أتوق لنظرة إعجاب تبزغ من عينيه... والبركان الذي كان خامدا بدواخلي دوى صوت انفجاره وتبعثرت شظاياه ..

3

كمعظم أطفال القرية عشت طفولة بائسة يدثرها العوز والفقر، لقد تربيت في كنف أسرة فقيرة لا يجد أفرادها ما يسدون به رمقهم، فكنت أحتقر نفسي وحالتنا المزرية كلما نظرت لابن عمي حين كان يزورنا في العطلة المدرسية فأقارن بين ملابسه النظيفة والجديدة وبين أسمالي البالية. وبين أمه المتعلمة ووالدتي الأمية. لطالما كانت تعذبني نظرات الاشمئزاز التي كان يرمقني بها أقراني عندما كنت أدرس في المدينة. ولأني لم أكن راضيا يوما عن وضعي فقد عزمت منذ طفولتي أن أحقق ما عجز والدي عن تحقيقه لي.

كان علي دائما أن أتحايل على الفقر، أن أقضي الصيف كله في العمل في (طنجة) لأوفر مصاريف دراستي. أن أبيع كتبي القديمة لأشتري كتب السنة المقبلة، أن ألصق حذائي المفتوح الذي لازمني ست سنوات لأنني لم أستطيع استبداله بآخر.. وكنت أتساءل في حنق والمرارة تملأ قلبي: لماذا أنجبوني أنا وإخوتي إن كانوا لا يستطيعون تلبية أدنى متطلبات عيشنا؟

ناضلت حتى أتممت دراستي وحصلت على الوظيفة، وكانت تجربة العمل في المدينة بداية للابتعاد عن القرية والفلاحين والبؤس المحيط بهم،

فتنكرت لكل شيء يربطني بذلك الماضي الكئيب، لأصدقائي المعدمين، للفلاحين الذين كنت أتقاسم معهم لفافات التبغ وكأس القهوة وأجلس وإياهم على كراسي المقهى بالقرية. بل حتى لأفراد عائلتي.

خلال زياراتي للقرية سواء أثناء دراستي أو بعد عملي في المدينة، كنت أجد في حضن ابنة عمي ما يغني كليا عن أي حضن آخر، لم أكن أحس ناحيتها بمشاعر من أي نوع، كل ما هنالك أني كنت محتاجا إلى وجود أنثى في حياتي، إلى لحظات عاطفية مختلسة تنسيني تعب الحياة ولو لبرهة. وأظن أنها بدورها كانت تفكر بعقلها لا بقلبها حيث رأت فيّ صيدا ثمينا تتباهى به أمام قريناتها. فلم يكن من الغريب أن تتأمل أنني سأتزوجها. سألتني ذات لقاء عابر عن نيتي الصادقة في الزواج منها:

- أنا حالياً مشغول بأمور أخرى لذلك لا أفكر في الزواج الآن.
- رشقتني بنظرة مستغربة، وقالت بصوت ضعيف مختنق:
- بعد هذا الوقت كله الذي قضيناه مع بعضنا وتقول أنك..

وكأنها كانت تريد محاصرتي وهي تقول بعد صمت طويل:

- خالتي تعرف بعلاقتنا علينا أن نتزوج وإلا افتضح أمرنا في العائلة.
- قلت لك ما زال الطريق أمامي طويلا.علي أن أبني مستقبلي أولا، لن أفكر في الزواج قبل عشرة سنوات.نعم عشرة سنوات.

كنت أعرف أنني قسوت عليها لكني بجوابي ذاك أردت أن أقفل الباب في وجهها نهائيا، فكيف يمكن أن أتزوج بفلاحة أمية جاهلة ولا تملك أي مقومات تغري بذلك؟

ونظرا لأني أعتبر الجنس شيئا والزواج شيئا آخر فلم أكن أثق في امرأة أخرى لا أعرف أصلها وتاريخها الغرامي، فبادرت بخطبة مريم إذ لفتت انتباهي بسمعتها الطيبة في القرية، كما لا أنكر أنني كنت مهتما بالوظيفة والمركز الاجتماعي، وأغراني راتبها الذي قلت أنه سيمكننا من شراء منزل، وسيارة وعيش حياة كريمة نوعا ما.

في أول لقاء لنا بدت مترددة- أو هكذا خيل لي- حينما بادرت بسؤالها المفاجئ:

- لماذا اخترتني أنا بالضبط فالقرية مليئة بالنساء؟
- ضحكت ضحكة فاترة وأنا أكتم غيظي:
- لأنك جميلة ومثقفة .. ولأننا ننتمي إلى نفس القرية. وأنت لماذا وافقت على الزواج مني؟
- أنا؟ لا أظنني سأعطيك جوابا شافيا فأنا نفسي لا أعرف لماذا وافقت على الزواج بهذه السرعة.

بعد الزواج بفترة ليست طويلة انزعجت من توالي زيارات أهلها بسبب وبدون سبب، وتدخلهم في شؤون حياتنا، كما أن سخطي عليها

أخذ يكبر شيئا فشيئا لأني لم أستطع أن أحقق طموحي المادي معها، حيث بددت كل حساباتي وراحت تغدق على أسرتها دون حساب. لم تكن هذه الأسباب وحدها هي التي جعلت استمرار علاقتنا ضربا من المستحيل، بل تنبهت لاختلاف طبعينا المتناقضين فلم نكن نقدر على التواصل والتفاهم في كثير من أمور الحياة، ما كنت أعده أنا سذاجة في مواقف عدة كانت تعتبره نبلا وأخلاقا، ومن كنت أعتبرهم حثالة كانت هي تعطف عليهم...لم تفكر مريم يوما في تحسين وضعنا الاجتماعي، إذ كلما ناقشتها في مسألة تبذير النقود على أسرتها وبأن علينا الادخار كي نشتري منزلا تقول لي أن والديها لا زالا بحاجتها وبأنها لن تتركهم. كانت تستفزني بسذاجتها، بطيبتها الزائدة فأضطر لأفجر غضبي وحقدي عليها.

تشاجرنا أخر ليلة شجارا حادا بعد أن أخبرتني بأنها أخذت ذلك القرض اللعين قبل استشارتي لتدفع ديون والدها. صفقت الباب ورائي وخرجت أسب وألعن. بعد منتصف الليل حين دلفت إلى المنزل، كان الدم يغلي في عروقي، دخلت رأسا إلى المطبخ كي أتعشى ثم فجأة لا أدري أيه قوة شيطانية دفعتني فبدأت أكسر وأرمي كل ما وجد أمامي، ثم ذهبت دون تفكير صوبها، ولم أفق مما أنا فيه إلا عندما رأيتها تهرب إلى غرفة النوم.

فاجئني قرارها برفع دعوى التطليق، وأحسست وكأنها تطعنني غيلة بهذه الخطوة غير المتوقعة منها. ورغم كونها تلقي باللوم على كاهلي بقولها إنني لطالما أهنتها بتصرفاتي، إلا أني أرى أنها كانت السبب في معاملتي لها على ذلك النحو، ربما كنت أشبه والدي في غضبه وعنفه، والدي الذي كان يقول إن المرأة مثل الحمار خلقت للعمل والضرب وقد أكون ورثت هذه الشخصية الحادة منه حين كان يصرخ في وجه أمي ويسبها ويصفعها أمام الجميع لأنها قامت بتسخين الأكل أكثر من اللزوم أو لأنها لم تسمعه حين كان ينادي عليها، وحين يركل مائدة الأكل برجله إذا نسيت أن تضع كأسا مليئا بالماء فوق مائدة الطعام، بينما تنكس هي رأسها وتنتحب بصوت خافت. لكنها تتحمل جزءا مهما من فشل هذه العلاقة حتى وإن تنصلت من مسؤوليتها وأنكرت ذلك.

ورغم كل شيء وجدتني أسعى لاستعادتها من جديد. لماذا؟ لا أعلم السبب حقيقة.

4

كانت القرية قبل العصر تتثاءب وتتمطى وهي تنهض متكاسلة من غفوتها الكاذبة، ففي هذا الوقت بالذات الذي يلبس لبوس الضجر، تستيقظ النميمة والوشوشات مع الرشفات المتقطعة من كؤوس الشاي المنعنع. فتبدأ بعد ذلك التحركات والأشغال المعتادة.

جلست فوق الدرج أمام الباب، وفي نيتي أن أبعد الضجر الذي يحوم حولي، بينما تركت الفرصة لطه للعب مع أطفال الجيران. النساء هنا يحملن صفات متشابهة: وجوه بملامح لوحتها الشمس وتركت فيها قسوة الظروف خطوطا لا تمحى، عيون غائرة لا يروي ظمأ فضولها شيء تقتحم خصوصيتك بفجور يخلو من الاستحياء. أرمق نظرات النساء الزائغة والمحدقة فأشعر بها تتوغل في كياني، وكأنهن ينبشن أغوار أعماقي. وكنت أفهم ما تعنيه نظراتهن.

منذ أن رمتني ظروف عملي في هذه القرية النائية التي لا تختلف في شيء عن قريتي، وأنا أحس دائما بأنني غريبة وسط هذه الخلائق التي لم أستطع التأقلم معها رغم مرور أربع سنوات على تواجدي هنا.

رغم الحداثة الظاهرية وموجة التكنولوجيا التي كست القرية بعد دخول الكهرباء، إلا أن العقلية لم تتغير كأن قشورهم هي التي تبدلت بينما

ظل الجوهر نمطيا. كان يستفزني تدينهم السطحي وأنا أراهم يهرولون للصلاة في المسجد يوم الجمعة دون سائر الأيام، ومع ذلك يكذبون ويزنون ويغتابون.. كانوا يتقنون اللعب بمفاهيم الفضيلة والشرف، ويرتدون أقنعة كرنفالية حسب الفصول والمواسم بينما يخفون الرذيلة والفجور في أعماقهم.

كنت أمقت فضولهم المفضوح حيث لا أسرار هنا تبقى حبيسة، ثرثرتهم الخاوية، حياتهم البطيئة والرتيبة، نظراتهم السطحية، دعواتهم الذليلة، روتين يومهم حيث تستيقظ النسوة باكرا، فيبدأن سحابة يومهن بالأعمال اليومية التي يقمن بها منذ آلاف السنين: ينصهرن يوميا في الأفران الهادرة، والجني والقطف والرعي وحلب الأبقار وقطع الحشائش وجلب الماء من العين أو البئر.. هنا فراغ وملل قاتل تبدده النسوة بالثرثرة وتناقل الشائعات ببلادة او حضور المناسبات التي تمثل بالنسبة لهن فرصة سانحة للخروج والتباهي بالزينة والرقص واللباس.. ويبدده الرجال في الترهل على كراسي المقاهي واجترار أخبار السياسة ببلاهة، بينما يتلذذون بالدخان المتصاعد من السبسي، ومن سجائرهم الرخيصة الملفوفة بيد خبيرة.

سحبني صوت قريب مني من تأملاتي، أدرت وجهي باتجاه الصوت، ومن غيرها قلت لنفسي. إنها جارتي المهذارة. كانت امرأة بدينة بوجه مدور متغضن وعينين جاحظتين.

كانت قد جلست للتو أمام باب بيتها، وكنت أتوجس طيلة الوقت ثرثرة فضولية آتية في الطريق، فما أن أقرر الجلوس هنا حتى تلحق بي.

ابتسمت ابتسامتها البلهاء التي تنذر بمقدمة طويلة من الاستجوابات فظهرت أسنانها النخرة. ابتسمت لها بدوري وبعد التحية المعتادة والسؤال عن الأهل والأحباب أخذت تسأل بنبرة فضولية عن تفاصيل خبر الطلاق الذي يبدو أنه غزا القرية كالجراد:

- هل صحيح أن عدنان طلقك؟
- -نعم صحيح. لكن.. لا زالت القضية في المحكمة.
- ليتك صبرت قليلا من أجل الصغير. لقد مررنا جميعا بهذه الظروف وإذا لم نصبر على المر لما وجدت هنا امرأة واحدة متزوجة.

(الصبر يا لهذه الكلمة المعجزة! التي تترك تأثيرا كالسحر على النفوس. هل كان يمكن أن أصبر أكثر مما صبرت؟)

أمي أيضا ذات أصيل نصحتني بالصبر. بعد زواجي بأشهر كنت قد صارحتها - رغم أني كنت أتفادى إقحامها في مشاكلي- بأن عدنان قام بصفعي أكثر من مرة، لكنها أجابتني ببرود:"إنه حتماً سوف يتغير حالما تنجبان طفلا."

وبنبرة استفزازية باغتها بسؤالي الجارح.

- حتى لو كان يضربك؟

- وماذا بإمكاني أن أفعل؟ الله يهديهم وصافي..

وعندها فقط ابتلعها صمت موجع قبل أن تضيف:

-أين سأذهب أنا وأطفالي؟ هل تعتقدين أن والديّ سيفرحان برجوعي إلى البيت وأنا مطلقة وبأربعة أطفال. اللهم هم زوجي ولا هم والديّ.

تركتها تهذي بقناعاتها ونهضت. على أية حال لم تكن لدي الطاقة النفسية لسماع المزيد...

كنت أنتمي لجيل نساء تجرعن الخيبات المشتركة..

نساء حكم عليهن القدر بمصير متشابهة خطوطه العريضة.

نساء يقضين وقتا طويلا، في تربية عجول وماشية، وبقرات، لا يعلمن متى سيأخذها الزوج ليعرضها للبيع دون أن يحصلن على ثمن كدهن وتعبهن.

نساء هجرهن الزوج، وتركهن في مهب الريح معلقات بين الوصال والهجر.

نساء يتجرعن شظف العيش لأنهن آثرن البقاء مع فلذات أكبادهن.

نساء قص جناحهن المجتمع، فأصبحن لا يستطعن التحليق بعيدا عن منطقة محرماته وممنوعاته.

... ...

5

ألحت علي ذكرى صديقتي هيام التي اختفت منذ أسبوع دون أن يعلم أحد مكانها. رحلت دون أن تترك أية إشارة عدا تلك المكالمة الصباحية. افتقدتها كثيرا، واشتقت إلى أحاديثنا الطويلة، إلى شرودها وصمتها، عزلتها وهدوئها المضلل الذي يواري صخب أفكارها، عزمها على إخراجي من الهموم التي أتخبط فيها وإصغائها بدون ملل لمشاكلي مع عدنان ومع أهلي. حيث لم يكن لدي من ألجأ إليه في أيامي العصيبة تلك غيرها. هي الوحيدة التي كانت تفهمني وتحس بمدى معاناتي.

عرفت هيام منذ سنوات، كنت قد التقيت بها في ندوة بكلية الآداب بفاس. أحسست إثر لقاءاتنا في الكلية بعد ذلك أن هناك تفاهما يلف شخصيتينا، وتوطدت صداقتنا أكثر إذ جمعتنا عوالم الثقافة والأدب. استمرت علاقتنا بعد التخرج من الجامعة، ودخلنا سويا مركز تكوين الأساتذة كنت أنا أتابع تكويني في تخصص مادة اللغة العربية، بينما تخصصت هي في مادة الفلسفة.

يوم اختفائها استيقظت ذات صباح باكر على رنين الهاتف الذي حملته من تحت الوسادة بعينين شبه مغمضتين:

- ألو من؟
- ألو أنا هيام.
- كيف حالك؟ خير إنشاء الله؟
- اعذريني على مهاتفتك في هذا الوقت لكن.. المهم.. لقد أردت توديعك قبل أن أسافر.
- لكن إلى أين أنت ذاهبة يا مجنونة؟
- لا زلت لا أعلم لكن.. ربما قد لا أعود.. وداعا مريم.

وقبل أن أسألها لماذا؟ وإلى أين؟ قبل أن أضيف أي كلمة أقفلت الخط.

ومنذ تلك اللحظة وأنا أحاول الاتصال بها دون جدوى.

كانت تلك الكلمات المقتضبة، آخر ما قالته في ذلك الصباح الغامض من نهاية شهر دجنبر، قبل أن تتركني في مهب الحيرة. بقيت النهار بأكمله أطل على بئر أسئلة لا قرار له. اتصلت ببعض أفراد عائلتها لكنهم أخبروني بأنهم لا يعلمون عنها شيئا، كما اتصلت بالطبيب النفسي الذي كان يعالجها فقال إن آخر موعد معها كان منذ شهرين تقريبا.

قبل ذلك بأسابيع قليلة، انكفأت هيام على ذاتها وغمرها صمت مخيف، - ليست هذه هي المرة الأولى التي أشهد فيها تقلبها المزاجي وعصبيتها - كما أنها أهملت مظهرها بشكل واضح، ولم تعد تحفل

بالحديث مع أحد كما لم يعد يثير اهتمامها شيء، حتى إنها لم تعد تذهب لعملها وهجرت فن الرسم الذي كانت تحتمي به من بؤس الحياة كما كانت تقول. وحين قلت لها أن تحاول أن ترسم مجددا قالت بتوتر وهي تصرخ: لا أستطيع.. لا أستطيع أن أرسم أي شيء ألا ترين كيف أنني لا أقدر حتى على التحكم في اهتزاز يدي؟ أتذكر الآن ما كتبه أحد النقاد في إحدى الجرائد وهو يتحدث عن لوحاتها التي أثارت ضجة أثناء عرضها في (الرباط)" تتميز لوحات الفنانة هيام، بكونها جياشة بالعواطف الحزينة..مضطربة الانفعالات وهائمة في العبثية.."

هل كانت هيام حقا تعاني اضطرابا في عواطفها؟

رغم تكتمها ومحاولتها عدم إظهارها ما يهوم في دواخلها إلا أن كلماتها كان تفضح ضعفها واضطرابها في بعض الأحيان. يحضرني حديثنا سوياً ذات مساء في منزلها وكان ذلك اليوم ذكرى رحيل والدها، فمنذ عرفتها وأنا أزورها في ذلك اليوم بالذات. كانت تلك الليلة في أوج يأسها، ككل ليلة من ذلك التاريخ المشؤوم. وبعد أن رمقتني بنظرة منكسرة والحزن يغلف وجهها قالت: "أتمنى في يوم من الأيام أن أنام ولا أصحو، تعبت من هذه الحياة، من استفزازها، من مؤامراتها، من عبثيتها.. تظل ترمينا بسهام مسمومة. وماذا تنتظر بعد؟ أن نظل متماسكين رغم ذلك؟".

لم أكن أُكثر على هيام بالأسئلة حين رأيت تكتمها على أسباب حزنها وقلقها، لكني أعتقد أن مأساة هيام تكمن في: نظرتها المثالية للحياة، في ثقافتها ووعيها.. وأن جزءا مهما من معاناتها يرجع-على الأرجح- إلى رواسب من طفولتها غير المستقرة جراء وفاة والدها في حادثة سير مروعة ظلت حديث قريتها والقرى المجاورة لمدة طويلة. والتي تركت جرحا غائرا في نفسها. أما في لحظات صفائها الذهني وهدوئها فقد كانت تقول لي وهي تضحك "أحسدك على والدك رغم كونه سكيرا" فكنت من شدة الأسى أضحك على هذه الفكرة لأنني بكل صراحة لم أكن أحسد نفسي عليه.

بحثت هيام عن مسكن ومخدر للاضطراب الداخلي الذي تعاني منه في الثقافة والفن، مما جعلها أكثر وعيا بالصراع، بالمواجهة الشرسة مع الواقع البائس، لذلك كانت في قلق مستمر إزاء حاضرها ومستقبلها، وبما أنه من الصعب جعل العالم كما نتمنى كان عليها أن تختار إما الاستمرار في طريقها الذي خطته منذ البداية أو الانسحاب من مواجهة التحديات والصعاب.

لم تكن هيام تشبه أيا من النساء اللواتي قد تصادفهن: امرأة تقطر ثقة بنفسها(رغم خجلها وشخصيتها الانطوائية)، لا تحكم على نفسها من خلال نظرة الرجل أو المجتمع، تتمتع بطاقة هائلة على العطاء والتمرد

على ما كانت تسميه أكوام الصدأ، لذلك لم تكن تحفل بشغل قلب أحدهم كمعظم فتيات الجامعة، كيف لا وقد نذرت وقتها وطاقتها لإطلاق العنان لأفكارها وإبداعها..

هيام امرأة مستفزة بجمالها الباذخ: فقد كان شعرها الأشقر المنسدل على كتفيها كخيوط الشمس يضفي سحرا على طلتها، وكان لعينيها الخضراوتين العميقتين ألق حزن مزمن. أما وجهها المتناسق الملامح والبهي الطلة، فإنه يوحي لك بهدوء ظاهري لكنه لا يعدو أن يكون قناعا تخفي وراءه التمرد والانفلات.

كنت أعد صداقتنا شكلا آخر من العلاقات التي تنفلت فيها النفس نحو أفق أرحب من تبادل الأفكار، والتواطؤ الضمني حول معاني الحياة، والحب، والتجربة الإنسانية...

كانت تقول:

- تولد المرأة في مجتمعنا لكي تعيش وتحلم وتفكر وفق قوالب جاهزة سابقة لمجيئها؛ إذ لا زلنا نعدها كائنا فاقد الأهلية وجدت في هذا الكون لتنجب وتربي دون أدنى اعتبار لمشاعرها، ورغم القوقعة التي نصر على حبسها فيها، يمكنها أن لا تكون نسخة من القطيع.

- كيف يمكننا أن نغرد خارج السرب مع انعدام هامش الحرية في مجتمعنا، ألا ترين أن هذا تناقض صارخ؟

نظرت إلي نظرة ثاقبة وابتسمت ابتسامتها الساخرة قبل أن تقول:

- من خلال تجاربي يمكنني القول إن أصعب شيء في هذه الحياة هو الاختيار، وقبل أن نختار يجب علينا أن نعرف مسبقا ماذا نريد، لذلك فالحرية تعني المسؤولية، مسؤولية خياراتك بالدرجة الأولى.

تنهدت قبل أن تتمم:

- عندما توفي والدي أحسست أن جزءا مهما مني ضاع ولن يعود، لأدرك فيما بعد أن الفقد قد أنضجني قبل الأوان، فعزمت على أن أتمم دراستي رغم الظروف المعيقة.. وعندما غادرت القرية للدراسة لم أضع حدودا في مجال الفكر. كان بإمكاني أن أكون أنا أيضا فلاحة، بسبعة أو عشرة أبناء، لذلك أؤكد لك أن العلم هو طريق الضعفاء والمقهورين للتحرر من شرنقة العبودية، كما أن لا مهرب للمرأة من القهر إلا بالثقافة والعلم.

- يبدو لي أنك تدافعين عن قضية صغيرة جدا، كيف لمن لا يجد ما يأكله، لمن لا يجد مكانا يؤويه- في ظل استئثار المهووسين بالحكم والسلطة بثروات بلادنا- أن يتحرر؟ كيف يتحرر وهو عبد لرغيف الخبز؟

- عزيزتي هناك أشخاص متمكنين اقتصاديا لكن لهم يد في عبوديتهم من خلال الأفكار التي يحملونها. فلكي يتحرر الإنسان عليه أولا أن يحرر أفكاره، وأن يفهم تاريخ الشعوب، ويتعلم من خبراتها ونضالها في سبيل تحررها.

هكذا كان يسترسل بنا الحديث كلما التقينا ويستمر حتى ساعات متأخرة من الليل.

(رحلت يا هيام وتركت فتقا غائرا في روحي لا يمكن رتقه..

رحلت بغموض، وصمت تليقين بهما!

رحلت بعد أن تركت لي وعدا مزيفا بالأمل وبريق أفكار تطل من شقوق الذاكرة..)

6

سمعت خبطا سريعا على الباب. قلت في نفسي أكيد إنها هي. ما أن فتحت الباب، ورأيت ملامح وجه أمي المضطربة في هذه الزيارة الصباحية من يوم الأحد حتى خمنت السبب وراء قدومها وتحملها مشقة السفر من (فاس) إلى هنا، خصوصا وأنني لم أكن أجيب على مكالماتها الهاتفية. قبل زواجي وطوال تلك الأشهر التي عملت فيها هنا لم تكن تتركني أنعم بساعة هدوء. كانت تجتاح هاتفي بمكالماتها، أو تأتي مع أبي وإخوتي في زيارات تطول لأيام. كما كانت تتمسك بعدم بقائي نهاية الأسبوع لوحدي فترسل أحد إخوتي ليظل معي.

لم أكن قد تناولت فطوري بعد، لذلك استأذنتها لإعداد الفطور بينما أخذت تلاعب طه. جلسنا ثلاثتنا إلى المائدة فبدأت تتحدث كعادتها عن معاناتها مع أبي لكونه يتغيب عن البيت كثيرا ويبذر النقود في الخمر، كما أنها لم تستطع التأكد بعد من خبر زواجه وفي حالة تأكدها ستلزمه بمصاريف النفقة وبالانفصال عن الأخرى. وواصلت بشيء من التذمر حديثها عن جدتي التي تؤيد ابنها وأختي التي تصادق فتيات سيئات السمعة وأخي الذي لا يريد أن يتابع دراسته...إلى غير ذلك من المشاكل

التي اعتدت سماعها بل كنت حاضرة في جل تفاصيلها المربكة. وددت في سري لو أنها تسكت، وتعفيني من الإنصات لبؤس حياتها، فقد مللت من تهور والدي وتشبثها رغم ذلك به، ومن الصراعات التي كانت تحتدم في بيتنا كل يوم..

سئمت من الحكايات ذاتها: النساء والخمر وتبذير النقود، سئمت كل شيء..

أخذت أتأمل نظراتها المغلفة بالاستسلام. كنت أشبهها إلى حد ما: في استكانتها وهدوئها، في قدرتها على التحمل، بل حتى في ملامحها البريئة وصوتها الناعم.

جاءت والدتي من مدينة صفرو، إلى قرية والدي(هوارة)، في إطار تعيينها كأستاذة للسلك الابتدائي، وكما روت لنا القصة مرارا: بعد تعرفها على والدي في المدرسة حيث كان بدوره يعمل أستاذا للغة العربية أحبا بعضهما وتزوجا بسرعة، ومكثا بعد ذلك في منزل جدي وجدتي.

كان تعليم أبي وأمي وكمعظم أفراد هذا المجتمع لا يتعدى ذلك التعليم التقليدي، النمطي من أجل الحصول على الشهادة. لذلك فأمي لم تخلع عنها رداء الأفكار المتوارثة أبا عن جد، ما جعلها لا تتقبل فكرة طلاقي، كما تمسكت من قبل بزواجها رغم تأكدها أكثر من مرة من عبثية القرار. وحتى عندما نبت لي جناحان وحاولت الطيران بهما، أرادت

حجزي في غرفة واطئة موصدة الأبواب لأرتطم بالجدران كلما حاولت أن أطير بعيدا عن توجيهاتها.

أخذتني الأفكار بعيدا.. حين كانا يتشاجران على مرأى منا، ثم يعلو صراخهما بينما تندفع الشتائم كرصاصات طائشة من كلا الطرفين. أما أنا فكنت أنزوي في ركن من الغرفة المجاورة وأبكي بعنف، كنت أبكي الحزن الثاوي داخلي. لم أكن أحس بأن لأبي أي دور مهم في حياتنا: لا أذكر أننا اجتمعنا كأسرة منسجمة يوما على المائدة مع أبي، أو خرجنا في نزهة سويا، أو تناقشنا في أمور تهمنا. الدور الذي كان يتقنه بإخلاص: إيصالنا في مشاويرنا ليعود أدراجه ويتركنا...كان بالنسبة لي سائق تاكسي لا غير.

كان في بعض الأحيان يغيب لأيام دون أن نعرف مكانه قبل أن يأتي إلى البيت يتمايل سكرا، فيبدأ الشجار بينه وبين والدتي من جديد. وبعد فراغهما من إهانتهما لبعضهما البعض، تأخذ أمي في الصراخ بطريقة هستيرية وهي تخيرنا بين البقاء معه أو معها.

ما كان يحز في النفس أنهما لم ينتبها يوما إلى عقدنا النفسية التي أخذت تنموا معنا، ولم يحسا أبدا أنهما دمرا أشياء صميمة في كياننا. أول جريمة اقترفاها في حقنا حين تركانا في المدينة نصارع الحياة لوحدنا دون توجيه من أبوين كما هو مفروض. لأن أمي لم تشأ أن تطلب الانتقال للعمل في

المدينة فآثرت البقاء في القرية لترصد خطوات أبي وتحركاته. لكانت النتيجة فشل مني به إخوتي في مسارهم الدراسي، بينما نجوت أنا بأعجوبة -ربما لأني كنت أعوض عن التعاسة التي ضربت قلبي بالقراءة- كانت تلك العاهات النفسية التي دمرت أرواحنا كفيلة بأن ترمي بكل واحد منا في هاوية سحيقة، ولم يكن مستغربا أن يرمي أخي بنفسه في جحيم المخدرات، وأرتمي بدوري في أحضان أي رجل يريد الزواج مني وأعده خلاصي من المعاناة..

كان صوتها يأتيني بعيدا ويعيدني من ذكرياتي:

- ماذا قررت؟
- الانفصال طبعا.
- لازلت مصرة؟ متى موعد الجلسة؟
- غدا.. غدا جلسة الصلح.
- قالت بصوت أسيف وهي تنظر لطه:
- سيعاني هذا الطفل المسكين من انفصالكما.

واصلت:

- لا زلت شابة والمجتمع لا يرحم، ما بالك إن كنت مطلقة.

(ألم نعاني أنا وإخوتي رغم عدم انفصالكما؟)

- لم يعد هناك ما يلزمني بهذا الزواج، أما المجتمع فليذهب إلى الجحيم. أخذت قراري وكفى.
- فكري على الأقل في ابنك إنه صغير وسيحتاج إلى والده.

(كيف تظن أنني يمكن أن أبقى مع رجل لم يحترف شيئا مثلما احترف إهانتي؟ كيف تظن أنني قد أعود له بعد كل الأوجاع التي اكتظ بي ألمها ؟)

قلت وأنا أهم بحمل الأطباق التي وجدت فيها ذريعة لأهرب من الحديث معها: على أي حال أنا لن أحرمه من والده.

كانت تلك أول مرة أعارض فيها رأي أمي، وأعتقد أنها أحست بنبرة التمرد والتحدي في صوتي.

وأنا في طريقي إلى المطبخ تمتمت :

- ماما متى ستتركينني وشأني !

(لقد أورثتني خنوعك ورضاك بالإهانة في سبيل وهم الحفاظ على الأسرة، اتركي لي على الأقل خيار أن لا أكون نسخة منك بعد أن صادرت كل خياراتي سابقا.)

وددت أن أقول لها:

المرأة الصامتة والراضية التي رُوضت على قول نعم في الوقت الذي كانت تريد قول لا، أصبحت تملك وحدها زمام أمرها. فالمرأة الجبانة [illegible] تمردت الآن عليكم وعلى عالمكم.

كتمت كلماتي في صدري، فهي على أي حال لن تفهمني.. لن تفهم أبدا أنني أصبحت كشجرة خريف كل يوم تتساقط أوراقي ورقة بعد ورقـة..

كلما نظرت إلى أمي كرهت ذلها، وكرهت هذا المجتمع المتناقض الذي لا يتوانى عن ارتداء الأقنعة، ويجد متعته في المراوغة بشكل فج. ألسنا أفرادا تتصور مسبقا ردود فعلنا ومواقفنا؟ ألا نعيش خلال ثوابت عصية على التغيير والطمس، فنحيط أنفسنا بأطر مغلقة ونتصرف غالبا وفق ما ينتظر منا؟

أخذت أمواج الأفكار تتلاطم في رأسي وتخنق في أي رغبة في مواصلة الحديث، فلم أجد بدا من استئذانها والاحتجاج بتصحيح فروض التلاميذ. فقامت بدورها لتعود إلى المنزل بعد يأسها من إقناعي.

7

استيقظت مبكرا هذا الصباح لأذهب إلى المحكمة.

كانت أقرب محكمة إلى القرية تتواجد (بتاونات).طوال الطريق كنت أفكر: ماذا سأقول؟ كيف أقوله؟ وهل أقول كل شيء..؟ كان الارتباك والقلق يسيطر على أعصابي، -ربما- لأني انتظرت هذا اليوم بنفاذ صبر ! و-ربما- لأنه يشكل خطوة مهمة في الإجراءات العملية للطلاق. كما كانت فكرة وجودي مع عدنان في نفس المكان تثير فيّ توترا، لذلك سألت المحامي أمس عن إمكانية تكلفه بكل شيء، لكنه أكد على حضوري الإجباري، فلم أجد بدا من تجاهل عدنان ما أمكن وإبعاده عن مجال تفكيري واعتبار رؤية وجهه شر لا بد منه.

عند وصولي وجدت المحامي قد سبقني إلى هناك. كانت القاعة غاصة عن آخرها بالرجال والنساء والمحامين. جلست أنتظر دوري لكي يأخذ القاضي أوراقنا ويسجل الأسماء. بعد انتهاء الإجراءات ذهبنا لقاعة ضيقة حيث جلسنا في كراسي مستطيلة متلاصقين ننتظر مرورنا ل(جلسة الصلح). كان عدنان واقفا عند مدخل الباب ينظر إلي بين الحين والآخر،

لكني حاولت عدم النظر إليه رغم أنه كان يثير ارتباكي بعينيه المصوبتين باتجاهي.

جعلت أعوض عن الانتظار باستراق نظرات بين لحظة وأخرى إلى الجالسين والجالسات في القاعة، الذين كانوا معظمهم قرويين تظهر عليهم علامات الفقر والعوز.. كانت الأصوات مختلطة ومتداخلة لكن رغم ذلك يمكن تمييز بعضها، انتبهت إلى صوت المرأة التي بجانبي وهي تتحدث بصوت خافت مع زوجها، لم يكن الصوت واضحا في البداية لكن فجأة سمعتها تسأله عن أحوال المنزل في غيابها وإن كان قد غطى الفرن كيلا يبلله المطر. بالرغم من كل ما يكون قد حدث بينهما إلا أنها لا تزال معلقة بتلابيب أشيائه قلت لنفسي. وأضافت تقول: "لماذا طردتني من البيت أريد فقط أن أعرف" توقفت حواسي عند هذه الجملة، حز في نفسي ضعفها وتشبثها بجلادها لآخر رمق. أخرجني صوت من تأملاتي. صوت امرأة تجلس على يميني، امرأة قروية في حوالي الثلاثين: عيناها غائرتان حزينتان، ترتدي جلبابا رثا وتحمل على ظهرها طفلا رضيعا. سألتني إن كنت قد جئت إلى المحكمة بسبب النفقة مثلها. أجبت بالنفي، ثم سألتها عن سبب مجيئها. فقالت بصوت تخنقه الدموع: تركني في شهور الحمل الأخيرة أنا وابنتي وغادر دون أن أعرف مكانه. هناك من كان يقول لي إنه هاجر إلى إسبانيا وهناك من يقول إنه يعيش مع امرأة

أخرى في المدينة. سنة بكاملها لا أعرف عنه شيئا، بينما كنت أسكن مع والديه وفي بعض الأحيان كنت أذهب لبيت والديّ. كنت أشعر أنهم تعبوا مني ومن أبنائي. بعد عودته إلى القرية وزواجه من أخرى جئت أطالبه بالنفقة. سألتها إن كانت قد استعانت بمحام لمساعدتها. فقالت بأنها لا تستطيع توفير ثمن الحليب لطفلها الرضيع فما بالك بتكاليف المحامي.

(ملامح قصص النساء في هذا المكان تذكرني بماضي الغابر، ربما لأن قصصهن تشبه إلى حد بعيد قصتي، إذ بالرغم من اختلاف التفاصيل يظل الإطار واحدا.)

انتبهت إلى صوت ينادي باسمي، يبدوا أنهم نادوا علي ثلاث مرات هذا ما قاله لي الرجل الواقف عند الباب. لكن يبدو أنني كنت غارقة في أفكاري.

بعد جلوسنا أنا وعدنان بادرت القاضية بسؤالي: لماذا تريدين الطلاق؟ ترى ماذا أقول ؟ قلت باختصار:

- كان يعنفني ماديا، ولفظيا.
- كيف ذلك؟ اشرحي لي من فضلك.
- كان متغطرسا، ويعاملني دوما بازدراء.. يعاملني كما لو كنت طفلة علي أن أرجع إليه في كل شيء.. ليس من حقي حتى أن

أدعوا أمي إلى المنزل دون إذنه. كما كان يستغل أي فرصة ليهينني وينقص من قيمتي ويضربني؛ ويقول لي مرارا: "أنا أكبرك سنا وأكثر خبرة منك، ولن تصلي يوما لمستوى تفكيري، ستظلين تتعلمين مني."

كما رويت لها والدموع تنزل ساخنة من عيني عن آخر شجار بيننا عندما قام بضربي. عندما سألته عن رأيه فيما أقول. أجاب بهدوء:

- كذب.. كل ما تقوله كذب.

ردت القاضية بنبرة لا تخلوا من سخرية:

- كاين شي قط كيهرب من دار العرس !؟

بعد أن أخذت القاضية إفادتي، خرجت من القاعة أمشي عل مهل منتشية الحواس، فلم أكن أصدق أن كل شيء مر بسرعة.

كانت المشاهد التي رأيتها في المحكمة تبين واقعنا البائس على حقيقته. لم تكن قصتي وقصص النساء نشازا في مجتمع يصفق للإذعان والخضوع، ويعدها خصالا حميدة تزين المرأة. فالمجتمع يزخر بالحالات المتشابهة في جوهرها والتي يعد القاسم المشترك بينها العنف الممارس على النساء بكل تلاوينه، والخناق المضروب على أعناقهن. ناقمة كنت على وطن عمد إلى تجهيل وإفقار أفراده عمدا كي لا يحسوا أن شيئا ينقصهم،

مما جعلني أطرح سؤالا فرض نفسه علي: هل هي ظروف بعينها هي التي جعلتنا ضعفاء ومهزومين هكذا؟

بينما كنت واقفة على الرصيف أنتظر سيارة أجرة لتقلني إلى البيت أحسست بيد توضع على كتفي، أدرت وجهي لأرى لمن هي هذه اليد المتطفلة، فوجدته واقفا ورائي كالشيطان. شعرت بالانزعاج في تلك اللحظة فقد سئمت ملاحقته لي. قلت بانفعال واضح:

- ماذا تريد؟

- فكري جيدا في الموضوع لازال أمامنا وقت.

قلت بإصرار:

- لم يعد لدي وقت أضيعه معك يكفيني ما رأيته منك.

قال بنبرة متضرعة:

- اسمحي لي على الأقل أن أوصلك بسيارتي.

- أفهم جيدا ما يدور في عقلك وأعرف مما أنت خائف كلامك لا طائل منه الآن.

- مريم أنت-

فقلت بتحد:

- أرجوك دعني وشأني. أنا وابني سنكون أفضل بدونك.

تركته واقفا وركبت سيارة الأجرة دون أن ألتفت ورائي، لقد تأكدت وأنا أنظر إليه من مشاعري اتجاهه، وتأكدت أكثر من هذا القرار الذي بات الشيء الوحيد الصائب وسط فوضى حياتي. وكل ما كنت أتمناه أن أهرب ساعتها من أشياء لا زالت مصرة على التمسك بي وبعثرة أوراقي...فلم أكن أريد أن أسمع كلماته أو أشم رائحته أو حتى ألمح طيفه...ما كنت بحاجته بحق هو دفن تلك الذكرى إلى الأبد..

فور وصولي إلى القرية، مررت بمنزل المربية لأخذ طه معي. كنت أخلع عني ملابسي، فكأني أخلع معها الهموم، والتحديات التي أثقلتني كل هذا الوقت. رنين الهاتف المتكرر جعلني أحس بنشوة الانتصار، بلذة عارمة لا تقاوم. وبدل أن يزعجني عدنان كعادته تركت الهاتف مرميا في ركن الغرفة وجهزت حماما ساخنا لأغتسل من الصدأ الذي علق بروحي.

8

اتصلت بها مرارا منذ رجوعي من المحكمة لكنها لا ترد ! ماذا تحسب نفسها؟

ركبت سيارتي بلا وجهة محددة. انطلقت بسرعة جنونية إلى الشوارع والأحياء، كان الدم يغلي في عروقي والضجيج يتسلق رأسي ببطء. إنها تريد إذلالي لكي يتشفى بي رعاع القرية.

ذهبت إلى البار رأسا طلبت زجاجة ويسكي، وأخذت أشرب حتى امتلأت. تذكرت نظراتها في المحكمة، كانت ترمقني بعينيها السوداوين الواسعتين وهي تتخذ مجلسها قبالتي. لم أستطع فهم مغزى تلك النظرات: هل كانت ازدراء؟ أم عتاب؟ لا أدري.

بكامل أناقتها كانت، متلفعة سروالا أسود ومعطفا أزرق اللون بينما شعرها البني منسدل على كتفيها. كنت أرنو إليها فأراها مرة تنظر إلي بتلك النظرات الغريبة، وتارة أراها شاردة تطغى عليها أفكارها.

لو أستطيع فقط أن أعرف فيما تفكر. لو حاولت يوما أن تفهمني.

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بقليل حين رجعت إلى منزلي بحي النرجس منهكا خائر القوى. تمددت على السرير بملابسي،

وفجأة لمعت في رأسي تلك الفكرة، حاولت طردها لكني في النهاية قررت الذهاب إلى القرية لرؤيتها. قلت لنفسي: تصميمي على رؤيتها يتملكني بشدة.

ركبت السيارة وانطلقتُ بسرعة صاخبة. بعد ساعة ونصف كنت واقفا أمام بيتها. طرقت الباب. لم تفتح. فكرت: ربما تكون نائمة. عاودت الطرق وانتظرت قليلا. ها هي تفتح. وقفت متصلبة أمامي. ألن تدعيني للدخول. قلت لها.

انقبضت ملامحها وهي تقول:

- تفضل.

دخلت إلى الصالون الذي يقابل الباب وجلست، ظلت واقفة أمامي فدعوتها أن تجلس لنتحدث. قلت بعد تردد:

- جئت أقول لك أن تسامحيني وتعطيني فرصة أخرى لنبدأ من جديد.

- عدنان لقد سامحتك كثيرا ولم يتغير شيء. في كل مرة كنت تثبت لي أني مخطئة. الحل الوحيد لمشاكلنا هو الانفصال.

قالت، وهي تنتفض واقفة.

كنت يائسا لا أدري ماذا أفعل، نهضت فجأة من الكرسي وأخذتها بين ذراعي كي أقبلها لكنها دفعتني وهي تصرخ:

- ابتعد.. ابتعد.

لعنتها في سري فأنا لم أعرف هذا الذل من قبل شعرت أني منبوذ وغير مرغوب فكرهتها ساعتها.

عدت إلى مكاني وقلت بإصرار.

- سأبقى الليلة هنا.

لكنها فتحت الباب وحملت طه بين ذراعيها وهي تقول:

- إذن ابق أنت هنا بينما سأنام عند الجيران.

عندما رأيت أنها تريد ترك المنزل أحسست بغضب كاسح وقررت الرحيل، فقلت لها بقسوة وأنا أقف عند الباب قبل أن أغادر:

- اسمعيني جيدا تأكدي أنك سوف تعودين إلي. هل تعرفين لماذا؟ لأنك لن تستطيعي أن تكوني وحيدة. فكري جيدا. ألم تسألي نفسك ماذا ستصبحين بعد الطلاق؟ سأقول لك ماذا بإمكانك أن تكوني: عاهرة. لا شيء سوى عاهرة.

في الصباح وجدتني نائما بملابسي وحذائي، تذكرت تفاصيل الليلة الماضية فكرهت نفسي لحظتها.

كيف وضعتني في ذلك الموقف؟ أيعقل أن أكون غير قادر على الاستمرار بدونها؟ هل أكون قد تعودت عليها؟ .. تخاريف!

9

في هذه الليلة الحزينة والمثقلة بالذكريات، جلست في الركن المعتاد من غرفتي الصغيرة، على نفس الكرسي الذي كان مكانا لتأمل أحزاني المبعثرة مع أوراق تلاميذي. كنت أرشف رشفات صغيرة من قهوتي كما أحبها بدون سكر. وبينما أتأمل سحب القهوة الشفافة وهي تتصاعد من الفنجان، أخذت الذكريات تتصاعد بدورها من أعماق روحي؛ إذ قد نتحايل على ذكرياتنا وندعي شفاءنا من جروحها لكنها في الحقيقة تظل واقفة أمامنا كبنيان صلب شيدته أيدي الوجع. فكيف أستطيع أن أنسى إذا كان عدنان في كل مرة يهبني حفنة من العذاب؟

لم يمل عدنان من الاتصال بي طوال اليوم، وبعدما أزعجني كثيرا بعناده اضطررت مساء أن أجيب على اتصاله. كان يقول إنه اشتاق لطه ويتمنى رؤيته، ارتبكت كثيرا أمام طلبه، وبعد صمت قلت له: "سأسأل المحامي أولا، لا حاجة لأن أقول لك إنني لا أثق بك". بعد حديثي معه راودتني ذكرى ذلك اليوم المشؤوم الذي عشته بين فكي الجحيم.

حضر ذات صباح باكرا من يوم الجمعة إلى منزلي بالقرية، ليقول إننا سنسافر سويا إلى (طنجة)، حيث سيسبقني هو و(طه) إلى (فاس) ريثما

أنهي حصصي وبعد ذلك ألحق بهم. عندما اتصلت به لأعلمه بوصولي أفاجأ به يجيبني بكلام لم أتوقعه:

- طه عند أختي.
- لكن لماذا ذهبت إلى هناك.. قلت إننا سنسافر. ألن نسافر؟
- لا لن نسافر إلى أي مكان. وابني سيبقى مع أختي هي من ستربيه.
- هل جننت؟ كيف استطعت أن تفعل ذلك. هل أنت ؟
- تكلمي على قدر مستواك !.

وأقفل سماعة الهاتف.

عندما وصلت إلى بيت أخته. نظر إلي بنظرات متغطرسة وأعاد على مسمعي نفس الكلام الذي قاله عبر الهاتف وأضاف يقول: لست أهلا لتربيته يجب أن أربي ابني مع أسرة محترمة وليس مع أسرتك المنحلة. أو مع مربية تفعل به ما تشاء. بعد شجار مطول بيني وبينه، أدخلتني أخته إلى الغرفة التي ينام فيها طه. وعلى حين فجأة خطرت ببالي فكرة نفذتها بسرعة: أقفلت الباب بالمفتاح على كلينا، واتصلت بابنة خالتي التي تعمل بمديرية الأمن الوطني بفاس أخبرتها بكل شيء. وبعد دقائق سمعت حديثها معه. ففهمت أنها هددته. بعد إنهاء المكالمة صفق الباب وراءه وخرج. انتظرت بضع دقائق قبل أن أحمل ابني وأخرج بدوري ركضا لأعود إلى القرية.

كيف كان يمكنني إثبات اختطافه لابني من حضني؟ كما لم يكن باستطاعتي قبلا إثبات العنف الجسدي والنفسي الذي طالما مارسه علي؟

فبما أنه لم يكن لدي دليل يثبت أنه ضربني، كل ما فعله الشرطي عندما ذهبت لأقدم بلاغا ضد عدنان لأنه أشبع وجهي صفعات، وحبسني في الغرفة بحجة عدم طاعته. أقول كل ما فعله ذلك الشرطي أنه أخذ إفادتي وإفادة عدنان ووقعنا على المحضر ثم انصرفنا كل واحد على حدة.

إذا كنت لا أستطيع إثبات الأضرار الجسدية ماذا إذن عن الأضرار النفسية؟

لقد كانت ثقافة الانتقاص والتمييز موجودة حتى في القوانين وفي تطبيقاتها. فحتى القانون يؤيد بشكل غير مباشر الإفلات من العقاب من قبل ممارسي الاعتداء.

لم أفهم لماذا تصرف على ذلك النحو المقيت؟ لم أفهم كيف خطرت له تلك الفكرة غير الإنسانية؟ فكرة أخذ ابني من حضني وتركه ليشب مع أخته لأنه يحتاج كما قال أن يكبر وسط أسرة وليس مع مربية.

كان ذلك القلق والخوف على ابني الذي تولد عن مواقف كثيرة عشتها بقربه، ينمو ويشتد عوده بدون إرادتي. والآن بعد مكالمته نضج واستقوى لينقض علي.

أفكر في ماضيّ مع عدنان الحافل بعدم الثقة وبانتفاء الأمان، وأدرك أنه من الصعب علي الثقة به في أي حال من الأحوال. لذلك فمن المستحيل أن أدعه يأخذه بدون أي وثيقة تؤكد ذلك. ورغم تأكيدي على إحضار عدنان لإذن الزيارة قبل اصطحاب طه، فإنني أعترف بعدم ثقتي أيضا بهذه القوانين التي ذقت من جورها الشيء الكثير. فإن تجرأ عدنان على تنفيذ تهديده فأنا لا أستطيع تحمل جحيم الانتظار، انتظار هذه المساطر القانونية التي لا تنتهي.

10

في الطريق من العمل إلى المنزل، وبينما أمشي وحيدة كالعادة. صادفت ممرضة القرية التي تسكن بجواري، برفقة زوجها يرفلان في الضحكات. بينما تتشابك أصابعهما في مشهد جميل لم أعتد على رؤيته وسط هذا المجتمع الذي يكره أناسه أي كلمة أو فعل يشير إلى الحب من بعيد أو من قريب. بعد أن سلمت عليهما وذهبا أدرت وجهي أنظر إليهما من وراء ظهرهما، كانا كعصفورين يحلقان في سماء الحب. أحسست عندها بعيني يكتظان دمعا ورغم أنني تحايلت على الدموع كي لا تنزل إلا أنها انسكبت ساخنة على خدي. وأنا أتابع طريقي بجناحين أعزلين، كانت الأحداث والمشاهد الماضية تتنامى أمام عيني مشهدا وراء الآخر. أخذ ألم الذكرى يشطر قلبي نصفين ولا يترك له مجالا للشفاء. خائبة كنت بأسئلتي: لماذا قدري أن أنام كل ليلة ملتحفة ذكرياتي الحزينة؟ لماذا قدر لي أن أرى التعاسة بأم عيني؟ لماذا أنا يا إلهي؟

بعدما دخلت المنزل وضعت طه بجانب لعبه وارتميت على بطني فوق السرير والدموع لا تفارقني.. كان الحزن يثقل على صدري، وصدى

صوت الذكريات الذي حاولت اجتثاثه من جذوره دوى في داخلي كالرعد.

(وهل لي أن أمحو تلك الأيام؟)

لا أذكر أن عدنان قبلني بشغف في يوم من الأيام، أو أنه قام باحتضاني كما يحتضن العاشق حبيبته بعد غياب. كانت علاقتنا الحميمية تكشف التباسا بين جسدين لم يستطيعا التماهي أبدا، وكأن كل واحد منا يمارس دورا لا يعرف لماذا زج به فيه.

كان يمتطي جسدي للحظات لا غير، دون أن يفهم رغباتي، دون أن يهتم إلى أن هذه اللحظات تستوجب توافقا وانسجاما روحيا من الطرفين. وبعدما ينتهي من انتهاك جسدي، يتركني ممدة على الفراش صورة بدون عنوان وكأنني مومس استباح جسدها لدقائق قبل أن يعطيها ثمن خدماتها ويغادرها إلى الغرفة المجاورة، بينما أختبئ أنا من نفسي.. من العالم.. تحت الملاءة.

في أوج تلك اللحظات التي تسمى قسرا لحظات حميمة، كنت جسدا يهتز بدون روح وكنت أحس أن صرخة غاصة في أعماقي ستنفجر إذا لم أحبسها في جوفي.

مع مرور الوقت بت أشمئز من رائحة عرقه النتنة، من حيوانيته، فتخلت عني رغباتي وشهواتي، صار جسدي جامدا، جافا، بدون رائحة

للرغبة، وبدون صوت. وصرت أكره تلك العادة الروتينية، التي تفتقد للاتقاد بيني وبينه المسماة جنسا.

سمعت صوتا خافتا ينادي: بابا.. بابا.. كان الصوت مخالب نسر تغرز في عنقي.. لم أكن أقوى على التنفس، أحسست أنني أختنق. رغم ذلك صرخت في وجه طه والدك مات.. مات.. مات...ودفنت وجهي من جديد في الوسادة وأنا أبكي.. أبكي بحرقة بألم، ملتاعة القلب أبكي...

أوراق من مذكرات هيام

سأسمي هذا الجزء: **العري أمام الذات**

عندما خامرتني فكرة كتابة هذه السطور، لم أكن أعرف بصدق السبب، كل ما أدركه أني كنت أحس برغبة عارمة في تجسيد معاناتي على الورق، وكأن قوة خفية تدفعني وتحركني لأمسك القلم وأكتب. لا أنكر أن الطبيب النفسي - الذي يعالجني منذ سنوات - هو من أوحى إلي بالفكرة وهو يحثني على محاولة كتابة أي شيء يخطر ببالي وأن لا أفكر كثيرا قبل الكتابة.

لكني لازلت إلى الآن أجهل الدافع الحقيقي وراء ما خطته يدي من بوح. ربما أكون كتبتها وفاء لذاكرتي المنقوشة بالألم، وإخلاصا لأحزاني، وربما لأننا حين ندون خساراتنا بين دفتي كتاب فنحن ننشد بلا وعي الشفاء منها برؤيتها جثة ممددة فوق البياض. فالكتابة فعل تلصص على أروقة الذاكرة، إنها أشبه بالحالة التي نكون فيها في الصلاة. فهي ذلك التوحد والعري الصادق أمام الذات، الذي مثل لي كرسيا للاعتراف بدون محاكمة من قبل أحد.

وراء هذه الكلمات التي كتبتها بدمي: أوجاعي وانكساراتي.. هنا جزء من معاناتي، وبعض مما لم أستطع البوح به، هنا انكسارات فتاة منسية على أرصفة العذاب...

وأنا بصدد الكتابة تساءلت بيني وبين نفسي: من أين أبدأ بالضبط؟ وبدون تردد قلت: سأبدأ من البداية .وأي بداية أصدق من الطفولة ؟! فالمشاعر التي نعيشها في تلك المرحلة تبقى محفورة أبدا.. بل تلازمنا طوال الحياة ..خصوصا إن كانت مشاعر ألم وحرقة وفقدان.

إن الأحلام التي انكسرت فيّ حين كنت في الثامنة من عمري لن تعود كما كانت، والبنت التي كنتها ترقص في الحقول ببراءة وتحط رأسها بين سنابل القمح ماتت منذ زمن بعيد.

كان القدر قاسيا معي، رماني في بحر هائج أتكبد وحدي عناء النجاة من الغرق دون أن يمد أحدهم يده لإنقاذي، وكنت أنا أراوغ طريقي المحفوفة بالأشواك كي لا أسقط. وأهرب، نعم أهرب من شيء ما أحسه يعدو خلفي، كي أنفض عني قليلا من الهم والحزن العالقان بروحي.

أتذكرين يا قريتي البديعة جراحاتي البعيدة ودموعي التي كنت أذرفها على ذلك القبر؟ أنا بلى لازلت على قيد الذكريات. ومن قال إن الذكريات المؤلمة تمحى ! هي فقط تغير ترتيبها لتحل محلها آلام حديثة العهد.

(منذورة) أنا منذ طفولتي للحرمان والنقصان. أو ليس اليتم نقصا فادحا وتصدع بالغ في جدران القلب؟

كنت صغيرة عندما رحلت وخلفتني في مهب الحرمان، تتطاول يد خشنة على براءتي، فأنظر للسماء وأهب بسؤالها: لماذا حلقت بعيدا

وتركتني أترنح وحيدة لا أليف لي؟ بعد رحيلك بسنة عن هذا العالم الموبوء، تزوجت فاطمة من رجل اختاره رجال قبيلتها وصرت أنت غريبا -كما قال محمود درويش- تنسى كأنك لم تكن. لم أستوعب يوما فكرة أن يأخذ مكانك رجل آخر، ولم أتقبل أبدا وجوده بيننا، فهجرت البيت وآويت إلى حضن جدي وجدتي هربا من البؤس الذي كان يحيط بي ومن بطش يد عمياء داست وشوهت براءتي بدون رحمة، كنت سعيدة لأنك كنت معي في كل مكان، أشم رائحتك في كل ركن من أركان البيت.. لقد كانت جدتي حريصة على أن نظل تحت جناحيها أنا وإخوتي لذلك حاولت إقناع أمي بالزواج من عمي، وكانت تكاد ترقص فرحا كلما رأتني فتمد ذراعيها وهي تصيح "إبنة الحبيب" ثم تفيض دموعها على خدها. كانت امرأة صلبة وقوية لكن بعد رحيلك سكن الحزن ملامحها ولم يفارقها. في المقابل كانت جدتي لوالدتي تكن لي عداء مستترا لم أكن أفهم سببه في تلك الأثناء، لكن بعد نضجي وعيت فكرة كوني لست من صلبها، -بتعبير آخر- أنني ابنة رجل غريب فلم يكن من الغريب أن تعاملني معاملة تناقض معاملتها لأبناء أولادها الذكور. كنت كلما ذهبت لزيارتها ترمقني بنظرات شزراء، وتفتش عن ذبالة خطأ أقترفه لتضربني ثم تطردني من المنزل.

قد ننسى في طفولتنا ممرات عبرناها وطرقا سلكنا دروبها وأشخاصا التقينا بهم، لكننا لا ننسى وجوه من أغمدوا سيوفهم في تلافيف نفسنا. كذلك لن أنسى أبدا ملامح تلك اللحظات المفزعة التي عشتها.

كان الوقت ليلا، وكنت نائمة وحدي كالعادة لأن أختي الصغرى تنام بجانب فاطمة بينما ينام أخي الصغير في غرفة مجاورة بجانب ابن زوجها. كنت ملتحفة أحلامي البريئة وأغط في نوم عميق، حينما أحسست بيد خشنة تتحسس فخذي وتجوس في مناطقي السرية وشممت رائحة أنفاس كريهة وملتهبة قريبة من وجهي، نهضت من فراشي مفزوعة، مرتعشة أحاول فتح عيني لأرى ماذا يجري، لكن الظلام حال دون رؤية ما كان حولي. كان الظلام مخيفا.. مخيف جدا. "إنه مجرد كابوس مزعج." هكذا أقنعت نفسي فحاولت النوم.. رغم أن شيئا ما بداخلي يقنعني أن شخصا ما كان معي في الغرفة يشاركني فراشي.

لم يطل انتظاري طويلا قبل أن أتأكد أن ما اعتقدته كابوسا كان حقيقة مرة...أفقت من نومي ذات ليلة وأنا أحس بجسمه الثقيل فوق جسدي المنزوع الثياب من أسفل بينما آثار اللعاب عالقة بشفاهي ووجهي، بعدما تأكد من استيقاظي أطبق بيده على فمي وهو يعصف بجسدي، وألم فظيع يفتك بي بين فخذيّ وبعدما التهم الوحش فريسته أزاح يده العفنة التي كانت تخنقني وقال: إياك أن تقولي شيئا وإلا

نحرتك. عند استيقاظي كانت نظراته تعريني وتتفحص كل جزء من جسدي الفتي وتخلع عني ملابسي قطعة قطعة..

لم أكن راضية وفي نفس الوقت لم أكن معترضة، كأنني أصبت بتجمد في مشاعري وباختلال في ميزان أحاسيسي، ولا أعرف لماذا لم أقل شيئا بعد ذلك لأي أحد -ربما- لأن الموقف كان أعقد من استيعابي وفهمي. أناخت علي الهموم، وناء قلبي الصغير بحملها، أصبح الليل معذبا، قاسيا، طويلا..لم يبرحني شعوري بالذنب والدنس وإحساسي أنني ارتكبت خطيئة عليّ تحمل وزرها مدى الحياة.

عندما أسترجع ما جرى في تلك الواقعة الصادمة، أقول أنه فعلا نحرني وقضى على أهم جزء في شخصيتي: وهو ثقتي بنفسي وثقتي بمن حولي حتى صار الخوف يحتل قلبي. كنت أخاف من الليل، من أي رجل كيفما كان إذا اقترب مني أو حتى إذا نظر إلي..

أذكر ذات يوم كيف أحسست بالرعب لأن خالي وقف ورائي بغتة بينما كنت أبحث في الدولاب الذي يحوي ملابس العائلة بأكملها عن فستاني، لمحته بنصف نظرة عاري الصدر فشلني الرعب لمنظره، كنا لوحدنا في الغرفة وكنت أقف متصلبة أمامه كمن سينفذ فيه حكم الإعدام ويدرك أنه ميت لا محالة. بعد ثواني من الترقب خلتها دهرا وبعدما لم يجد ما كان يبحث عنه سألني إن كنت قد رأيت قميصه الأبيض ليخرج تاركا إياي مهزوزة الكيان.

رغم العذاب الذي عشته، والذي كنت أتمرغ فيه، نجحت في إنهاء دراستي الابتدائية في تلك السنة، وبما أنه لم يكن من مجال لإتمام الدراسة في القرية لعدم وجود "إعدادية" فقد كان من المفروض أن أكتفي بالشهادة الابتدائية مثل معظم فتيات القرية، لكن طموحي كان أكبر وأقوى من الطوفان. كان يتملكني إحساس عميق بأنني لا أشبه فتياتها وفتيانها في شيء، وبأنني ولدت لأتحدى كلمة "الظروف". أقنعت جدتي بأن ألتحق بالإعدادية الوحيدة التي تبعد حوالي عشرين كيلومترا عن القرية. كانت تلك التجربة بداية التحول الجاد في شخصيتي. فكبرت ولم يكن في حياتي من يمكنه فرض سلطة أوامره أو نواهيه علي. كنت أحس أنني حرة في اتخاذ قراراتي المصيرية.

حاولت في كل خطوة أخطوها أن أواري صدمتي الثرى بالبحث عن مرفأ لسفني المتعبة في الدراسة والعلم، فكنت أعوض عن الأشياء الصميمة التي ماتت في بتفوقي الدراسي سنة بعد سنة... كانت القراءة هي شرفتي التي أطل بها على العالم، والتي من خلالها أبصر ما لا يمكن لإنسان عادي أن يلحظه .

كما كان عالم الألوان الذي اكتشفته منذ مراهقتي يساعدني على تعويض ما اجتث من نفسي، ويعينني على سكب جزء ولو ضئيل من رذاذ حقدي وعجزي في لوحات مبعثرة الألوان لنساء بدون ملامح ..بدون ماض.. بدون ذاكرة.. لآباء يحملون أطفالهم على أكتافهم ولا يتعبون...

الفصل الثاني

مرافئ النسيان

"على كل مفترق طريق يؤدي إلى المستقبل
وضعت التقاليد عشرة آلاف رجل لحراسة الماضي."

موريس ماترلينك

"الحرية تعني المسؤولية.
وهذه هي علة الخوف الذي يبديه معظم الناس منها"

برنارد شو

"الخسارة تدمي ولا تقتل"

محمود درويش

1

لقد مرت حتى الآن ستة أشهر. ستة أشهر كاملة منذ رفعت دعوى التطليق.. لم أنتظر شيئا في حياتي كما أنتظر الآن حكم القاضي.

كنت أقضي الأيام في موقد مشتعل بنار الترقب والانتظار القاتل، وكانت تداهمني طوال هذه المدة التي مرت ببطء مخيف فكرة فقدان حضانة ابني. هذه الفكرة كانت تسيطر علي بالكامل لدرجة أنها كانت تطمس أي فكرة عداها.

لن أنسى ذلك اليوم عندما فاجئني عدنان بزيارته المباغتة إلى بيتي يطلب أن نعود إلى بعضنا وكأنني لم أعش الجحيم بقربه، هددني يقول: "سوف تندمين على كل شيء تذكري هذا جيدا" ومنذ ذلك اليوم تتلبسني هواجس مخيفة.. حاولت طرد هذه المخاوف من مخيلتي وواصلت طريقي..

كان طه يلعب في فناء المنزل، لقد تركته كالعادة مع المربية (عائشة) التي تسكن بجواري. لم أكن لأطمئن عليه معها طوال مدة غيابي لو لم ألحظ حبه الواضح لها وحنانها البالغ تجاهه.

عائشة هي المرأة الوحيدة هنا في القرية التي جمعتني معها علاقة صداقة. كانت امرأة جميلة ببساطتها وكفاحها، تناضل مع خمسة أبناء في غياب شبه تام للأب.

كنت قد سألتها ذات يوم ونحن نتجاذب أطراف الحديث في منزلي عن طبيعة عمل زوجها لأنني لاحظت أنه يتغيب عنهم لمدة طويلة. ولم أفاجأ عندما قالت لي بأنه متزوج من أخرى وله أطفال آخرين، لكن ما فاجئني حقا أنها كانت مقتنعة بمصيرها المعلق على مشجب الإهمال، قانعة بشح زياراته لهم، وتعتقد أنها أخذت نصيبها من الحياة الزوجية ومن حقه بعد أن كبرت أن يتزوج امرأة أخرى تصغرها سنا.

هل كثرة القهر تجعلنا قانعين بمصيرنا. أم أنه في بعض الأحيان يكون الرضى أريح للنفس من التأرجح بين عدم القبول وعدم الرفض؟

يظل المجتمع الشرقي يلاحق المرأة منذ ظهور علامات الأنوثة بين ثنايا جسدها الغض حتى تصطاد عريسا، وبعد أن تتزوج يجري خلفها محملا بالاستفسارات والأدعية والمتمنيات، والوصفات الشعبية... إلى أن تنجب، وبعد إنجابها واستنزاف طاقتها وشبابها يهملها ويهمشها في أحد أركانه لأنها أكملت دورتها في الحياة، وكأن المرأة سلعة لها تاريخ صلاحية، وكأنها آلة يجب استبدالها إذا شابها عطل.

2

بعد مرور يومين اتصل بي المحامي ليعلمني بحكم المحكمة، ورغم أنني كنت أعرف مسبقا أن النتيجة الحتمية ستكون هي الطلاق إلا أنني عندما أقفلت الخط شعرت برغبة ملحة في البكاء تكتسحني. كنت مشوشة الخاطر ومضطربة الأفكار.

لم أفهم هذه الأحاسيس التي تعتريني: من جهة أحس بأنني رميت عني كل همومي ومن جهة ثانية أشعر بخوف مبهم يملأ قلبي.. أأكون خائفة من شبح المجهول الذي يلقي بظلاله على مستقبلي؟ ألا أكون قد تسرعت في قراري؟

هذا السؤال الذي لطالما عذبني يذكيه شعوري بالوحدة، وخوفي من أن أكون قد حرمت ابني من حضن والده؛ فتأخذ الأفكار تتصادم وتتصارع، وتدق رأسي كمطرقة، بينما أجلس في ركن ركين وأنا أضع رأسي بين يدي وكأنني أنتظر أي فكرة ستنتصر في النهاية..

عندما أخبرني المحامي ب"المستحقات" التي حُكم بها لي ولابني طه، ابتسمت بسخرية وأنا أردد: ماذا ستعوض هذه المستحقات الهزيلة والمهينة في نفس الوقت..

فكرت في تكاليف المحامي الباهظة التي دفعتها. تذكرت المرارة السوداء التي تجرعتها، وجل ما عايشته.. بدأ ذلك الماضي الكئيب من صفره إلى أخر ليلة بمأساته، بالعذابات التي أوجعتني، وتلك الأيام التي ابتلعني بؤسها.. يلمع في ذهني. ذكرياتي المؤلمة أخذت تتداعى في نفسي والأفكار والخيالات تجتاحني.. إهاناته التي تضرب قلبي في مقتل.. حياتي معه منذ بدايتها..

إلى جانب هذه المخاوف التي أتعثر بها، كانت تعكر صفوي الإجراءات القانونية المعقدة التي علي القيام بها. في كل مرة أقول إنني أخيرا انتهيت من هذا الهم الكبير. أجد أن تفاصيل عديدة لا زالت بانتظاري. فقد كان علي أن أتكلف بإبلاغ عدنان عن طريق مفوض قضائي بالحكم النهائي للمحكمة.

3

يوم جديد.. سأم جديد..

لم يتغير شيء منذ أيام، لا شيء أبدا...الغرفة الباردة ذاتها، واليوم الطويل الرتيب الكئيب نفسه.. أنهض بتثاقل من على الكنبة السوداء الموضوعة في الجهة اليمنى من غرفة الجلوس، أتلمس مزهرية الورد الفارغ على الطاولة الخشبية. أقول لنفسي: تمهلي، اليوم لا زال في بدايته فلم العجلة؟ لا أحد ينتظرك ولا أحد سيأتي ليزورك ويشرب معك فنجان شاي، ولا أحد سيدعوك مثلا للتفرج على فيلم في قاعة السينما..

أقف واجمة وأنا أضع رأسي على النافذة وأرمق الناس في حركتهم ونشاطهم بفتور. نظراتي جامدة وأصابعي التي أمسك بها طرف الستار متحجرة. كل شيء يحيطني بارد كالصقيع. صامت كصمت القبور. يخلو من المعنى.

منذ مدة وأنا منعزلة عن العالم تماما، أقفلت هاتفي وأغلقت باب بيتي، حائرة كنت لأني لم أصادف إشارة واحدة أستدل بها على الحقيقة. حقيقة مشاعري. حقيقة الحياة. حقيقة ذاتي.. هل علي أنا أيضا أن أحمل

مصباحا كالذي حمله ديوجين في واضحة النهار، أستعين به على رؤية الحقيقة؟

منذ فقدت أحلامي تباعا أصبت بجمود في مشاعري لم يعد شيء يثير حماسي أو استخفافي.

وفي ظل هذه الظروف التي أعيشها وتلك الارتباكات التي أتمرغ في وحلها، كان علي أن أذهب لعملي وأقف أمام التلاميذ في القسم بكامل تركيزي وثقتي بنفسي. وعدا عن ذلك أن أعطي وقتي لابني. من أين لي بكل هذا الجفاء والبرود والحياد !

كنت أدرك أنني أمشي في طريق لن ينتهي بي إلا إلى مزيد من الحزن. لكني في هذا الوقت بالذات كنت بحاجة لأن أكون وحيدة أكثر من أي وقت مضى، لأعيد ترتيب الفوضى في دواخلي وأرمي الكراكيب التي تكومت في وجداني، والأهم أن أتأقلم مع وضعي الجديد.

أنفض عني خواطري، وأغلق النافذة. يطالعني وجهي في الجدار المقابل، أتقدم نحو المرآة ببطء. وجهي شاحب وعيناي باهتتان من أثر الأرق، عيناي اللتان كان يشع منهما بريق الحيوية والطموح خمدت الآن نارهما، وخبا بريقهما. أخذت التعاسة تستنزف نضارتي وشبابي. (أليس هذا ما كنت تريدينه؟ أن تحركي خيوط قدرك بيدك بعد أن كنت كعروس

من قصب تحركها أمزجة مختلفة؟ وأن تتخلصي من كل ما يعيق راحة بالك؟)

لا، لن أبقى على هذه الحال. علي أن أفعل شيئا. علي أن أخرج من هذا الجو المفجع الذي أحجز نفسي خلف أسواره. علي تحطيم الجدران وتخطي العقبات. لن أجعل طيف عدنان يتربص بي ويتحكم في عواطفي بعد أن أخذت قراري. نعم أخذت قراري وانتهى الأمر. علي الآن أن أكون قوية، قوية بما فيه الكفاية لأعيش حياتي كما أريدها أنا وليس كما تفرض علي من لدن مجتمع منافق وعجوز.

تراودني تلك الفكرة مجددا، والتي كلما فكرت فيها حجبت عن ناظري هموما وزرعت في قلبي فرحة مرتقبة

4

كان طه قد نهض قبلي وكعادته لم يترك ركنا في البيت لم يبعثر أشيائه، أما عندما رآني مستيقظة فأقبل نحوي راكضا ليقبلني. قبلته واحتضنته ونهضت رأسا إلى المطبخ لإعداد الفطور.

بعدما تناولت فطوري وبينما أراجع بريدي الالكتروني، هجمت علي تلك الفكرة التي عبثا أحاول طردها منذ أيام خلت، بحركة سريعة قفزت من السرير وأنزلت الحقيبة الجلدية الصغيرة من فوق الدولاب حيث كنت أخبئ ذلك الصندوق الأحمر الذي أدفن فيه ذكرياتي وأشيائي الثمينة بحكاياتها، جلست على طرف السرير وكأنني أجلس على طرف الحلم القصي وأنا أفتح الصندوق شعرت كأني أفتح كهفا مغلقا منذ عقود، زكمتني رائحة الذكريات البعيدة وأخرستني. حملت الكتاب بين يدي ومسحت عنه الغبار الذي علق به. بين دفتيه كانت ترقد صورتنا معا، لا أعرف لماذا لا زلت أحتفظ بها مع وردة حمراء ذابلة أهداني إياها ذات مساء. تأملت طويلا الصورة، كنت سعيدة وهو يقف بجانبي، بينما ذراعه تحط على كتفي. على ظهر الصورة التي توثق اللحظة وتشهرها برهانا قاطعا أمام النسيان، طالعني خطه " يا نجمتي المضيئة.. معا إلى الأبد".

انتفضت أمامي قصتنا وحلقت كأسراب الطيور..

أحببنا بعضنا أنا وعماد منذ سنوات، وبالضبط في العام النهائي من دراستي الثانوية، ومرت بعد ذلك سنوات ثلاث تعاهدنا على الحب والاخلاص. كنت عندها طالبة في كلية الآداب بمدينة(فاس) بينما كان يدرس في كلية الحقوق.

لطالما أسرني عماد بشخصيته الرومانسية، وصوته الهادئ الذي يفيض حنانا. كان شفاف القلب شغوفا، رجل تطوقك نظراته الحالمة بعينيه العسليتين، وملامحه الدقيقة الصنع.

قضينا أوقات شاهقة في سماء الحب العذبة، ودخنا ساعات في دروب الشوق الملهم، لكن في أوج الثمالة نسينا أن هناك شبحا يتربص بالعشاق اسمه الفراق؛ فقد اعتقدنا ببراءة المحبين وبأخطائهم الأزلية التي تظل تتكرر على مر التاريخ أننا لن نفترق، وأن ذلك الرابط القوي سيظل يربطنا للأبد !.. عاشقان كنا غمرهما العشق من رأسهما حتى أخمس قدميهما ولم يتوقعا غدره أبدا.

فجأة بدأ ذلك الحبل السري يتمزق... وانطوى نزيف القلوب مع الأيام.

في الفترة التي انتقل فيها للدراسة في المدرسة العسكرية بمدينة (مكناس) انقطعت أخباره عني -بقصد أو دون قصد لا أدري- وبعد أن كان هاتف الحب يدق كل يوم أخذ يتوارى في محطة النسيان، ولم أدر إلا والبعاد ينضج شيئا فشيئا.. فأضحى رمادا ما كان نارا تلهب الفؤاد..

أضع الصندوق جانبا بينما صورتنا لا تفارقني وأسأل نفسي:

هل يمكن للقلب أن يعود كما كان، قبل أن تغرس فيه مدية الفراق وتكسر عنفوانه لوثة البعاد؟

هل يمكن أن تتوارى تلك التصدعات التي يلحقها بمشاعرنا الزمن..؟

لا أعلم لماذا خطر ببالي في الآونة الأخيرة وأنا في عز همومي. كلما انبثقت صورته في خيالي اجتاحتني لهفة جنونية لرؤيته وسماع صوته، ودغدغتني رغبة جارفة في أن أخفي وجهي في صدره كما كنت أفعل في الماضي.. أن أشعر بانسحاق عظامي بين يديه.. أن أرفع وجهي إلى وجهه وأنا أتفرس في ملامحه..

لم أستطع كبح رغبتي، انتصبت فورا، واتجهت صوب المنضدة بحثا عن الدفتر الوحيد الذي أحتفظ به منذ سنوات الجامعة. كنت قد بحثت عنه مطولا في الأيام الأخيرة لأنني كنت آمل أن يكون فيه ما يوصلني إلى عماد. وبعدما عثرت فيه على بريده الالكتروني بقي التردد يفترسني حتى هذه اللحظة.

كتبت الرسالة وأرسلتها بسرعة عبر البريد الالكتروني لكي لا يكون أمامي مجالا للتراجع.

- لن أخسر شيئا.

تمتمت وأنا أنهض لتحضير نفسي للذهاب للعمل.

5

قررت أن أنتهز يوم السبت لزيارة جدتي وعمي. ولأنني كنت أود أن أكون مفردي فقد تركت طه مع المربية.

ركبت سيارة أجرة، وانطلقت إلى القرية التي وصلتها مع العاشرة صباحا.

القرية كما عهدتها دوما ترتدي أجمل ثيابها، وتطغى لوحات الجمال من بين ثناياها، حيث تتراءى لك البيوت الطينية متفرقة بألوانها البيضاء، وخطوط خصرها الخضراء اللون، والتي تجبرك أبوابها الواطئة على الانحناء قبل ولوجها.

تقف(هوارة)بشموخها وكبريائها تحيطها الجبال، وتحرس جمالها أشجار الزيتون السامقة، والكروم الباسقة، أما وأنا أتوغل فيها، وأخطو بمهل لأطيل لحظة الانتشاء كي أقبض على اللحظة ولا تنفلت كالماء من بين أصابعي.. فقد غمرتني عندئذ رائحة استفزت تخوم ذاكرتي، إنها رائحة التراب المبلل وشذى زهور البرتقال.

ما أحلى المشي وسط الحقول! تصافحك قطرات المطر ويقبل وجنتيك نسيم عليل! بينما أنت تتمشى في مساربها فتوشوش لك الزهور،

وشقائق النعمان الشهية باحتضانها وتغريك بالنوم متكئا على الأحجار المبعثرة في نظام لا يمكن تفسيره.

وأنا أسير وسط حقول المراعي المليئة بالحشائش الخضراء، وأصعد النجود والآكام، كان الفلاحون غارقين في أعمالهم، ما إن لمحوني من بعيد حتى توقفوا بتلك الحركة الآلية التي لطالما خبرتها، وأخذوا يتطلعون إلي بنظرات مستطلعة.

وأنا أواصل طريقي مررت بتلك الشجرة المهيبة، إنها شجرة الزيتون البري، كانت لا تزال كما رأيتها قبل سنوات تتحدى بقصصها الخرافية التي كانت ترويها الجدات وتحتل جزءا من ذاكرتي المليئة بالهلع، كنت كلما مررت بمحاذاتها أحس بالرجفة ذاتها، بالرعب نفسه الذي كنت أحسه وأنا طفلة حين أضطر لتجاوزها ركضا في الظلام.

لماذا لم أر يوما الكون بهذا الجمال؟ ألهذه الدرجة تتغير صورة الأشياء في عيوننا حسب مزاجنا العاطفي والنفسي؟

في تلك اللحظات أحسستني أتجرد من سطوة والدتي على تفكيري... من سيطرة والدي على أحلامي ... أحسست أن دماء جديدة تجري في عروقي وأن قلبي يدق بإيقاع مختلف.. وكأني رميت هما عن كاهلي فانزاحت سنوات الألم عن كتفي..

وأيقنت أنني طوال هذا الوقت كنت أسيرة قلعة شيدتها بنفسي، وأمعنت في تحصينها وبناء أسوارها.

لأول مرة أعي معنى أن أكون حرة بلا قيود.. ولأول مرة أحس أنني ولدت من جديد..

تركت الطبيعة تبعثر همومي، وتعطيني طاقة من الهدوء النفسي الذي افتقدته. وواصلت الإبحار بلا بوصلة عدا فرحة قلبي...

كان إحساسا غامضا بالفرح، إحساسا مباغتا بالهذيان قد اجتاح كياني فجأة. كأن أحلاما جديدة تزرع في بستان أيامي.. إحساس بالخدر يستولي على أعطافي..

تمنيت لو بإمكاني أن أظل هنا ما حييت.. أن أصرخ ملء حنجرتي وأسمع صدى صوتي يتردد في الفضاء.. لو أجري بين الأشجار حتى أخرّ من التعب.

وقفت أمام باب المنزل حيث تتواجد مباشرة شجرة بطم. كانت هذه الشجرة تمنحنا ظلا وارفا في فصل الصيف، كما كانت ملجئي ومحراب تأملي كلما تعبت من شجار أمي وأبي.. بعد عودتي كل يوم من المدرسة كنت أفرش دفاتري وكتبي عند جذعها القوي وأقضي ساعات في التفكير وإنجاز واجباتي المدرسية.

وأنا أدلف منحنية إلى مدخل المنزل، رمقت جدتي في وسط الدار تفترش (هيدورة) وتقشر حبات الفول الطازجة، كانت جدتي امرأة في الثمانينات من عمرها، قصيرة وذات جسد قوي رغم كبر سنها، لها تقاسيم حادة تزيد شخصيتها القوية هيبة. بعدما سلمت عليها واحتضنتها بشوق. جلست أمامها أساعدها في تقشير الفول، وبينما نتجاذب أطراف الحديث، دخل عمي الأكبر والوحيد (العربي). انه كما عهدته دوما شديد النحول لدرجة أن عظام وجهه الأسمر الهزيل بارزة، عيناه صافيتان براقتان، حين لمحني ارتسمت على وجهه ابتسامة خاطفة كوميض البرق، وتقدم نحوي بخطواته المتعثرة، كان لا يزال يعرج برجله اليمنى من أثر التعذيب الوحشي الذي تعرض له في سجن الاعتقال كما لا زالت تلك الحدبة تنام على ظهره منذ سنوات خلت.

تذكرت في تلك اللحظة تفاصيل حكايته التي كان يرويها لنا عن تجربته في غياهب السجون، بينما تأخذ ملامحه في التقلص، ويكتسي وجهه حزن فضيع

" في شهر ماي من سنة1973 بينما كنت أعمل كعادتي بعد العصر في الحقل، باغتني القائد رفقة ثلاثة أشخاص بزي مدني، إضافة إلى دركيين واقتادوني مغمض العينين، مخفور اليدين. فهمت فورا بعد تلك المداهمة أن الجبناء وشوا بي. رموني في إحدى السيارات متجهين بي صوب مخفر

فاس. بعد وصولنا أدخلوني زنزانة باردة مظلمة ومتعفنة. من هناك كنت أسمع أصواتا مختلطة فظيعة وعويل حاد وطويل. وبعد مدة من الإنتظار المرير بدأ التحقيق. ما علاقتك بالميداوي؟ لماذا ذهبت إلى الجزائر؟ أين تخبىء السلاح؟ ذقت خلال التحقيق مختلف أصناف التعذيب: الكهرباء، الشيفون، وضعية الطائرة، تلفيفي ببطانية فوق منضدة خشبية وربطي بحبل من رجلي ثم وضع رأسي في ماء ممزوج بالفضلات. والأفظع حينما هددونني بالإغتصاب.. بعد عشرة أيام من التعذيب الهمجي، تم تذكيري بالتهم الموجهة إلي: التآمر على أمن الدولة، الانتماء لمنظمة سرية (منظمة التحرير المغربي)، نقل السلاح عبر الحدود الجزائرية المغربية، ترويج وثائق سرية بين أعضاء هذا التنظيم بالداخل والخارج.. ليجبروني بعد ذلك على توقيع المحضر تحت التهديد. رحلت على متن القطار رفقة شخصين إلى الدار البيضاء. هناك بقيت لسنوات في الأقبية المظلمة وكانت النتيجة: عاهة مستديمة في رجلي اليمنى وظهري، مرض مزمن في المفاصل بسبب البرودة، عدا عن الأذى النفسي جراء نظرات الاحتقار التي كان يرمقني بها الناس في القرية بعد خروجي، بينما ببساطة نعم آخرون بالمناصب والامتيازات."

في تلك السنوات التي كسا الرعب والبؤس ملامح القرية لدرجة أن الناس أصبحوا يخافون حتى التحدث مع بعضهم البعض -كما تقول

جدتي- عمي العربي ورفقائه كرسوا عمرهم للنضال والكفاح من أجل الكرامة والحرية.. لكن بعدما باع المزايدون الوطن، لم يجن ذاك الجيل الضائع سوى نثار خراب وحفنة عاهات ورثوها من دهاليز وأقبية الظلام والظلم. ليتم رميهم بالتعويضات فيما بعد.

هو ذا عمي قليل الكلام، دائم الشرود ونادرا ما يضحك، وكأن السنوات التي قضاها في السجن أفقدته رغبته في الحياة، وزادت من ساعات تأمله وقدرته على العمل. فبعد أشهر قاسية من الصمت والحزن والوحدة، نهض فجأة ذات صباح باكر أمام استغراب العائلة ونفض عنه غبار الصمت، حيث خرج إلى الحقل مع مدراته وفأسه وأدواته التي لم تغب عنه يوما واحدا بعد ذلك.

بعد أن سلم علي، ربت على كتفي وهو يردد" الله يرضي عليك آبنتي" ثم مضى.. كنت أتملى فيه وهو يبتعد، أستعيد كلماته وشعاراته وحكاياته عن النضال، لم يكن أبي يشبهه في شيء سواء بنخوته أوبمبادئه التي تحمل الويلات من أجلها.. لطالما تمنيت لو كان فعلا هو أبي، أبي الذي لم يتقن شيئا في حياته كما أتقن مقارعة الخمر وعبادة أفخاذ النساء. كنت أقول لنفسي: لربما عندها كانت ستأخذ حياتي منحى آخر.

غادرت القرية محملة بنشوة عارمة، وبقبلات جدتي وعمي اللذين وعدتهما أن أعود لزيارتهما قريبا.

6

تذكرت أن هاتفي مقفل منذ ليلة أمس، حين اضطرني عدنان لإقفاله بسبب هدير مكالماته الذي لم ينقطع لساعات متواصلة. ما إن فتحته حتى داهمتني مجموعة من الرسائل الصوتية من عدنان مسحتها فورا دون سماعها، وكانت أيضا رسالة خطية من رقم مجهول تقول:

"مريم.. هذه أنت؟ أيعقل أن تكوني أنت أم أنني أهذي؟

أتدرين أيتها البهية أن ذكراك لم تبرحني منذ بحثت عنك ولم أجدك. وأن طيفك كان يمضي مجرجرا وراءه وشاحا من الأمنيات البعيدة بعد أن ينتبذ له مكانا في الأعماق. أثر عطرك، لون شعرك وملامح ابتسامتك لا تزال عالقة بمخيلتي.. أما نظراتك الحائرة، وأصابع يدك المرتبكة فهي موشومة في خلايا الذاكرة.

أرجوك قولي شيئا واختصري علي مسافات العذاب، قولي أي شيء..

هبيني من لدنك وصالا أو نظرة عجلى كي أتأكد من أنك حقيقية، وبأنني لست واهما.

لن أقول أكثر من أن فتيل الشوق اشتعل في صدري."

قرأت كلماتك بذلك البطء المتعمد للهفة، وأعدت قراءتها مرة تلوى أخرى لأستغرق فيها بكل جوارحي. تباغتني ذكراك أيها الشقي من حيث لا أدري! هكذا بدون استعداد عدا استعداد قلبي المتوقع للاشتياق لك. عاودني ذلك التوق المجنون نفسه، بعثرتني النظرات الحائرة نفسها.. ولمسة اليد الحانية ذاتها..

منذ أيام وأنا أنتظر ردا على الكلمات المفخخة بالحنين.. وكغيمة حزينة حفتني أشواك الحيرة من كل جانب.

كنت معلقة إلى جواب لا يأتي، كلما انتظرته تجاهل ترقبي، وأمعن في غيابه.

وكنت من فرط يأسي قد فقدت أمل قراءة حروف تعيدك إلي.

والآن، بعد انشغالي المتعمد عنك تغزو مفكرتي وتحرق كل شيء عداك.

أألقاك..؟

كيف ألقاك.. وأنا ممزقة وتائهة في شوارع الذكرى أطرق ألف باب وألف شباك بحثا عن الحب؟

كيف ألقاك وأنا حبلى بالأوجاع منذ سنين؟

قفزت بخفة من على الكرسي. وألقمت المسجلة كاسيتا، وأخذت أدور.. وأدور في الغرفة على نغمات "أنا قلبي دليلي".

لم يفاجئني مثل هذا الاحساس الفذ، والفريد منذ سنوات. كان قلبي يختلج بمشاعر تطفئني حينا وتشعلني أحيانا.

ارتميت فوق الكنبة المواجهة للمكتب وصدري يعلو ويهبط بإيقاع متواتر. والدوار برأسي قد أخذ مداه.

7

بعد حيرة ولهفة وتردد وحنين جارف للعشق الخاطف، سأتبع خطوات قلبي إلى النهاية، سأنتعل مشاعري وأذهب لحلم أرهقني وأربك مشاريع يومي.

كنت أستعد لموعدي معه كأنه الأول: جربت ملابسي كلها على عجل قبل أن يقع اختياري على سروال جينز، ومعطف خفيف أحمر. لم تعجبني تسريحة شعري القديمة فقررت تركه منسدلا على كتفي. نظرت إلى وجهي في المرآة ألف مرة حتى تعب وجهي من المرآة وتعبت هي منه.

وخرجت أخيرا..

كانت السماء صافية والشمس ترسل شعاعا صباحيا دافئا في حلم ربيعي اكتمل نضجه على نار هادئة.

أخطو بخطوات متثاقلة نحو المقهى. أحس بالوجوه تلتهمني وبأنني قد ألتقي بعدنان في أي لحظة.

كان جالسا في ركن ركين من المقهى، يقلب صفحات جريدته، ويرشف من فنجان قهوة أمامه.

بعد مرور زهاء خمس سنوات من الغربة، أقول خمس سنوات من الفراق، ها نحن نلتقي أخيرا.

تسمرت أمامه أنظر إليه ولا أصدق نفسي. كنت مبعثرة الحواس كدت أسقط مغشيا علي من الصدمة، من الفرح، من الحب..؟ لا أدري. كنت مأخوذة بهذا اللقاء الساحر.

- مريم.

قالها بحماس وهو يقف منتصبا كفارس إغريقي، وانفرجت أساريره عن ابتسامة رائعة ابتسامته التي أعشقها.

وأنا أدفن يدي المرتجفة الأصابع في يده قلت بارتباك:

- كيف حالك ؟

- لا زلت جميلة لم تتغيري.

قال، بينما لا يزال ممسكا بيدي، وحرارة بشرته تخترقني.

- أنت أيضا لم تتغير لا زلت مشاغبا.

جلست على الكرسي المقابل له. وأخذت أمعن النظر في عينيه كأنني أبصرهما لأول مرة. لا زالت تشع الحيوية من ملامحه ولا زالت عيونه تحتفظ بألقها الغامض. كان أنيقا ببساطة مظهره وهو يرتدي قميصا أبيض وسروال جينز.

- انتظرتني كثيرا؟ معذرة منك فلم أعثر على سيارة أجرة بسهولة.

- أنتظرك العمر كله. اشتقت إليك كثيرا صغيرتي.

هل كان يقيس بكلماته مدى تعقلي أم أنه يعرف مسبقا غرقي في بحر عينيه فيريدني مواصلة الغرق إلى مالا نهاية؟ .

- أنا أيضا اشتقت إليك. كم كان صعبا علي الحضور للقائك وكان الأصعب أن لا آتي.

قلت، والكلمات تفر مني.

- كنت سأتعذب لو لم تأت..

- أريد أن أعرف أخبارك هيا حدثيني عنك عن أحوالك.. عن كل شيء.

- أخبرتك كل شيء عبر الهاتف، أنت تعرف مرت علي أوقات قاسية جدا. تعذبت وقاسيت الويلات جراء تهوري.

- كان صعبا ما رويته لي. لكن عليك الآن أن تنسي كل شيء وتبدأي الحياة كأنك ولدت من جديد.

أما وهو يسألني عن أحوال أبني ففي دقائق قلائل فاجئني حزن غريب انعكس على صوتي وكلماتي المتقطعة، فأخذ يتملى في وجهي ثم أمسك ذقني بسبابته وإبهامه وبدا مصرا لمعرفة سبب هذا التغير الذي طرأ علي، حاولت أن أداري ما بي وبعد تردد قلت له:

- خائفة كثيرا من عدنان، أصبحت لا أنام من فرط خوفي أن يأخذه مني.
- حبيبتي انظري إلي. أفهم جيدا خوفك وهو خوف طبيعي. لكن لا أريدك أن تعطي الأمور أكثر من حجمها، فالرجل الذي لم يهتم طيلة سنوات سواء بك أو بابنكما لن يهتم الآن بأخذه منك.
- أنا لا أثق به أفكر في أنه قد يود الانتقام مني فقد سبق وحاول حرماني منه كما سبق أيضا وهددني.
- لا تدعي الأفكار السلبية تؤثر عليك، لا أحد يستطيع أخذه منك وحتى إن تجرأ فهناك قانون يحميك.
- أنا لا أقول ذلك من فراغ، لقد وعيت مفارقة قوية، وهي أن القانون شيء والواقع شيء آخر، ومن ضمن المشاكل التي واجهتها: صعوبة التبليغ والإثبات، إثبات تعرضي للعنف..
- رغم كل الظروف عليك أن تكوني قوية. اتفقنا؟
- نعم اتفقنا. ترددت كثيرا قبل أن أبعث لك تلك الرسالة لم أكن أعرف ما هي ظروفك الحالية وإلى أي مدى امتدت يد الزمان إلى مشاعرك. لكن عندما سمعت صوتك عبر الهاتف هونت علي الكثير من مخاوفي.

- أما أنا فمهما قلت لن أقوى على وصف شعوري وأنا بقربك، تدرين لماذا؟ لأنني أجد أن الكلمات قاصرة أمام مشاعري. لو انتظرتني قليلا فقط لما وقعت أشياء كثيرة.
- أنا أومن بأن المسافة هي ذلك الاختبار القاسي لكنه الأصدق لقلوب المحبين.

أضفت وكأنني أبرر:

- كل ما أستطيع قوله أنني كنت مجبرة على ذلك الزواج، أعلم أن هذا السبب غير مقنع لكن.. أنت أيضا ابتعدت فجأة ولم أجد أي مبرر لغيابك المفاجئ، كما أنك لم تكن واضحا بخصوص علاقتنا.
- هل هناك شيء أوضح من الحب؟ ما أدركه جيدا أنني كنت ولا أزال أحبك وكفى.

أمسك يدي بكلتا يديه بينما ندت عن عينيه غمزة ماكرة، فسرت رعشة لذيذة في أوصالي ودبت الفرحة في أعماقي. وأنا بقربه كان يغمرني شعور بالرضى والاطمئنان.

ضحكنا بجنون، وتذكرنا رفاقنا ولقاءاتنا في (دهر المهراز)، وفي شوارع المدينة العتيقة. وتأكدت حينها أن وميض حبنا لا زال ناشبا في خيالنا.

لكنني كنت متأكدة أيضا رغم كل شيء أن هذا اللقاء الذي خطته يد الأقدار لكلينا لن يكون أي شيء عاديا بعده.. كيف لا؟ وقد جردتني كلماته من مقاومتي فأخذ قلبي يرقص بين أضلعي لينجرف مع تيار الأحاسيس ويتدحرج كصخرة من أعلى جبل دون أن أقوى على إيقافه. ومن يستطيع إيقاف تهور القلب حين يجن؟ !

في صميم فرحة هذا القلب المعطوب، كانت تنزوي صورة ابني الذي تركته بانتظاري. كانت هذه الفكرة وحدها كفيلة بأن تخنق الشغف الذي يسكنني وتحرض أشواك الذنب على وخزي في دواخلي.

ونحن نخرج من المقهى أمسكني من ذراعي بحنان مفرط وهمس في أذني: دعيني أراك مرة أخرى. أرجوك.

ومضيت.. أتأرجح في أرجوحة الرغبة.. الرغبة في الحياة.. في الحب.. في الحرية...

8

الرجال والنساء يفتحون عيونهم في دهشة، عيونهم التي كانت تتحرك ككاميرات، بينما يرمقونني بنظرات جوفاء مبطنة بمعاني الاتهام. كان مكوثي بمفردي في المنزل بعد طلاقي يثير لعنتهم وثرثرتهم فيشغلون عقولهم بإحصاء تحركاتي. كانت حريتي تثير ذعرهم فيلوكون سيرتي في مجالسهم، ويطلقون العنان لألسنتهم الحادة كالسكاكين ثم يغرزوها في مواطن مختلفة بعشوائية.

أكاد أسمعهم يدمدمون: كيف أمكنها أن تطلب الطلاق؟ كيف تعيش بمفردها دون حسيب أو رقيب؟ كيف تخرج عارية الرأس وهي امرأة مطلقة؟ كيف...كيف...؟

أخذ الجميع يتسابق لإسداء النصح لي، أو لتحذيري من مغبة الأخطاء التي قد أرتكبها (فالمجتمع لا يرحم).كما أخذ بعض الرجال في الإلتفاف حولي ومغازلتي، والتغزل بمفاتني وجمالي كذلك الأستاذ- الزميل الذي تفنن في الالتواء والاختباء، وهو يعرض علي قضاء ليلة في بيته، الذي سيكون خاويا في نهاية الأسبوع لأن زوجته ستذهب لزيارة أهلها.

اتصلت أمي بدورها لتخبرني بأنه لا يجوز لي أن أدخل وأخرج بدون حساب، خصوصا وأن سمعتي الآن على المحك، لذلك سترسل إما أخي أو أختي للبقاء معي ريثما أتزوج مرة أخرى.

أسئل نفسي و الحنق و المرارة يتشبثان بي:

ما هذا التناقض الذي نتخبط فيه !؟

أليس للمرأة في هذا العالم الشاسع أهدافا أخرى غير الزواج؟ أليس لها الحق في اختيار حياتها وفق ما تراه هي مناسبا لها؟

لماذا نمتهن التمثيل والتزييف بحرفية متقنة ونبني متاريس عالية من التقاليد والأخلاق والممنوعات والمحرمات...؟

لماذا نجند جيوشا ونشحن طاقات للدفاع عن وهم شرف لا يمت للشرف بصلة؟

لماذا نقبل أن نعيش ازدواجية أخلاقية وتناقضات قيمية؟

كنت أحارب على عدة جبهات.. أحارب تمزق ذاتي.. أحارب عائلتي.. أحارب نظرات مجتمع متجهمة تشير إلي بأصابع الاتهام.

لم أكن يوما مع الجماعة بكلي، بل لطالما كان نصفي الآخر يرفض الأوهام.

يوم بعد آخر أبتعد عن الناس المحيطين بي لأنهم في النهاية روبوتات متشابهة تسيرها يد صانعيها.

يوم بعد آخر تتمزق الخيوط التي تربطني بالمتشابه والمألوف والمعتاد.

9

كنا نزداد أنا وعماد تعلقا والتصاقا ببعضنا البعض ونحن نقضي ساعات في التحدث عبر الهاتف، فنتمم حديثا بدأناه في الليل أو يقرأ على مسمعي قصيدة عذبة، أو يطلب رأيي في فكرة معينة... أضحى سماع صوته عادة يومية لا أستطيع التخلي عنها. وخصوصاً وأن هناك قواسم مشتركة تجمع بيننا فتجعل أي حديث معه يحمل نكهة خاصة.

ما إن اتصل عماد ليطلب رؤيتي حتى أخذ الشوق يجرني من يدي مرة أخرى رغما عني.. بينما أخذ قلبي يلهث باعثا بين أضلعي دقات مضطربة.. عبثا أحث قلبي على التروي وبدون جدوى أثنيه عن التسرع. فما إن ظهر عماد مجددا وبعث بتلك الرسالة حتى انفلتت مشاعري كحبات العقد من بين يدي.

تقابلنا في المدينة المحببة إلى قلبينا وإذا بلهفة عيوننا تسبقنا، ولمسات أيدينا تزيد الجمر اشتعالا..

كانت السماء صافية تتآمر معنا على المدينة، وكان هواء خفيفا يعبث بخصلات شعري التي أخذت تطير في كل اتجاه وتغطي وجهي.

بعد جولة مشي في أزقة المدينة العتيقة، عرض علي عماد أن نشرب القهوة هذه المرة في منزله. ترددت للوهلة الأولى بيني وبين نفسي لكني وافقته على لهفة.

كاد قلبي يقفز من مكانه وأنا أصعد الدرج بصحبته. انتظرته حتى فتح الباب ثم دلفت بسرعة إلى الداخل.

مأخوذة كنت بهذه الخلوة، لدرجة أنه عندما أقفل الباب علينا ظللت أنظر إليه متصلبة كجذع شجرة لا أبرح مكاني. وربما لكي يزيل ارتباكي مد يده إلي، فأغمدت يدي في يده عندها فقط مسني خدر لذيذ. لا أدري كيف ارتميت بسرعة في حضنه وأنا أرتجف كقطة مبلولة بينما أخذت دموعي تنزل بدون توقف.

- لماذا تبكين الآن؟

-لا أعرف. من شدة تأثري سالت دموعي.

-هيا تعالي لتغسلي وجهك.

حينما دخلت إلى الحمام، اندهشت في البداية من وجود قارورة عطر نسائي على رف المرآة. هل كان يختبر حدود غيرتي ؟ أم أن صدفة عبثية هي التي ألقت بها أمامي؟ لم أدرك أن القدر كان يرسل لي إشارات سأفهمها لاحقا وأنا أتذكر كل ما جرى.

دون أن أقول له ما دار بخلدي، خرجت بعدما مسحت الكحل الذي ساح على وجنتي، وأعدت ترتيب خصلات شعري. كان واقفا بانتظاري. أمسك يدي وهو يقول: سأريك الشقة. كان البيت حميميا للغاية ببساطته وبألوان أثاثه الدافئة الذي يبدو أنه اختير بعناية. الشقة تتكون من: غرفتين وصالون في جهته اليمنى وضعت مكتبة كبيرة. وقد علقت على الحائط لوحات فنية. وأجمل ما في المنزل تلك الشرفة المطلة على الحديقة حيث تتوسطها طاولة بكرسيين. أما غرفة النوم فقد كانت تزينها ستائر مخملية قرمزية اللون.

ونحن نمشي باتجاه الصالون، أمسكني من يدي وهو يقول "تعالي أريك شيئا" انخطفت وأنا أمشي وراءه. لكنه أجلسني على كنبة جلدية بنية اللون، ثم وضع رأسه على حجري بينما مد رجليه فوق طاولة أمامه ثم أشار بيده باتجاه رأسه. ففهمت أنه يريدني أن أعبث بخصلات شعره. وأنا أخلل أصابعي في شعره وأتطلع لملامحه، لا أدري لماذا أحسست بأنه يخفي شيئا ما، وبأن حزنا غامضا يغلف تعابيره.

-كأنك مشغول بشيء ما؟

قلت، محاولة استدراجه للبوح.

-الحياة في بعض الأحيان تكون جائرة، فلا تعطينا ما نصبو إليه إلا بعد فوات الأوان.

-هل أفهم أنك تتحدث عنا.. أعني عن علاقتنا؟

-نعم صحيح.. لماذا يا مريم لم تظهري قبل هذا الوقت؟

-أرجوك كفى لا أستطيع تحمل المزيد من اللوم.

عندها فقط تنهد تنهيدة عميقة لم أفهم سرها. ثم فجأة نهض من مكانه، واستوى جالسا وأخذ ينظر إلي بنظرات شرهة. نظرت إلى عينيه التائهتين وفي لحظة خاطفة كوميض البرق انقضت شفتاه على شفتي في قبلة محمومة متوحشة. امتزجت فيها الخلايا وتوقف الزمن لبرهة خالدة. غمرني إحساس بأنني أطير. يا إلهي ! لم يسبق بأن شعرت بهذه اللهفة من قبل بهذا التشتت اللامرئي..

عماد أرجوك.. لا أريد أن تتطور الأمور أكثر من ذلك. قلت له ونحن ننهض صوب المطبخ لتحضير القهوة.

تحدثنا وضحكنا بصخب، ونحن نشرب القهوة التي قمت بتحضيرها بنفسي، ومرت الساعات شهية طازجة..

وأنا أغادر إلى المنزل حيث تركت طه مع أمي، تقاسمتني مشاعر متناقضة، تراوح بين الندم المقطر والفرح المخاتل.

في كل مرة كنت أخلّف طه وأذهب للقاء عماد أحس بأنني أذنب في حقه، وعندما أترك عماد عائدة إلى المنزل أشعر بأن قطعة من روحي قد قدت مني. كنت بين نارين أحترق بينهما. كيف لامرأة مثلي، تحمل من عبئ الأمومة ما أحمل أن تهنأ بعشقها لهذا الرجل؟

ورغم أنني كنت أتوق إليه توق التراب المتشقق إلى الماء، إلا أني أغالب دواخلي وأنا أراوح بين التمرد على مشاعري والتمادي في الحب إلى منتهاه. كنت أسمع صوتا خافتا يوشوشني بأن عودة قلبي إلى أحضان عماد، جنون قد يؤدي بي نحو أعماق المتاهات وإنني على حافة هاوية بعيدة القرار !

10

اتصل بي عدنان أمس الجمعة ليقول إنه اشتاق لطه ويريد رؤيته. قبل ذلك كنت قد قررت أن لا أسمح له باصطحابه قبل أن يحضر إذنا من المفوض القضائي. والآن أنا مترددة لأن ضميري يعذبني. فكرت طويلا حتى تعبت، كنت حائرة بين أن أسمح له بأخذ طه معه وأتحمل بذلك الأفكار السوداوية التي ستهجم علي، أو أن أرافقه بنفسي ليراه ويلعب معه كما يقول، وأكون عندها قد ضمنت وجودي قرب ابني. وفي الحالة الأخيرة علي تحمل البقاء مع عدنان لساعات.

كنت كلما سمعت صوت ابني ينادي على والده، يشرع تأنيب الضمير في نهش أوصالي وتقطيعها، فأتمزق جراء هذه المواقف التي تورطت فيها بدون إرادتي. وفي اللحظة ذاتها يلح علي صوت عدنان وهو يقول: "سأجعلك تندمين على كل شيء". فأعيش مشاعر مزدوجة تخنقني، فمن جهة أعي تماما أن حرمانه من والده سيكون ضربا من الأنانية، ومن جهة أخرى كنت أتمنى أن يموت أو يتزوج وينسانا أنا وطه إلى الأبد كي أحيا بسلام..

اتفقنا أن نذهب سويا لحديقة يقول إنها جميلة كي يتسنى له اللعب مع طه، وأن يأتي لاصطحابنا من منزل والديّ. بعد الظهر رن هاتفي فعرفت أنه ينتظرني تحت. حملت طه بين ذراعي ونزلت. بعدما ركبتُ سيارته سلمت عليه ببرود، ورغم الارتباك كنت مرتاحة نوعا ما لأن وجوده بقربي لم يعد يؤثر في ذلك التأثير السلبي السابق. حمل طه وأخذ يقبله ويداعبه ثم أعاده إلي قبل أن تندفع السيارة إلى الحديقة.

في الطريق بدا لي عدنان على غير عادته يلتفت إلي وكأنه يريد أن يقول شيئا ثم يعود محدقا أمامه. لم أهتم لما يريد قوله وضعت مرفقي على زجاج النافذة وجعلت أرنو إلى الطرقات. فجأة مد يده ووضعها فوق يدي وهو يقول: اشتقت إليك مريم، ثم أحاطني بذراعه وجذبني إليه لكنني نزعتها بسرعة.

بعد وصولنا، جلسنا ثلاثتنا في مقهى الحديقة. طلبنا أنا وعدنان قهوة ولطه حليبا بالشوكولاتة. وأنا أرشف رشفات من فنجاني نظر تلك النظرة التي يمتزج فيها الصدق بالكذب، ثم بدأ يتحدث عن مشاعره اتجاهي وعلاقتنا وإعطائه فرصة ثانية... حاولت إبعاده عن الموضوع. قلت:

- دعنا الآن نتحدث عن طه وإمكانيات الزيارة القانونية المتاحة والمريحة لكلينا، فأنا لا يمكنني في كل مرة أن آتي للمدينة، كما لا يمكنك أن تأتي إلى منزلي ساعة تشاء.

- لا يمكنني أن أتحدث عن طه بمعزل عنك فأنت أم ابني الوحيد. أريد أن نعود كما كنا.. بصراحة لن أعثر على امرأة مثلك وأنت أيضا لن تجدي أحدا يحب طه كما أحبه أنا حتى إن التقيت رجلا يقبل الزواج بك.
- كفى أرجوك.. كما كنا؟ وكيف كنا رأيك؟ هل كنا سعداء؟

قلت، وصورته وهو يضربني ويهينني لا تفارق خيالي، وندوب جراحه لا زالت محفورة في ذاكرتي.

- هل تعتقدين أنك إذا ارتبطت برجل آخر سيكون خاليا من العيوب؟ لا وجود لإنسان مثالي تذكري هذا.
- بالتأكيد لا وجود له، لكن على الأقل لن يكون بمثل غرورك وعنفك..
- قال وهو يهم بحمل طه ليلعب معه.
- بإمكاننا أن نصلح كل شيء لا تكوني أنانية وفكري في مصلحته هو.

كنت أتمعن في كلامه، وأنظر لابني الذي بدا سعيدا جدا وهو يلعب برفقته.

سرحت بعيدا.. وأخذتني أفكاري إلى حيث لا أريد. مجددا اعتراني ذلك الإحساس القاتم الألوان.

أه.. يا لعذابي الذي يمتصني !

11

كنت امرأة تستند على انكساراتها لتواصل السير..

وكنت عند طلوع الشمس أسقي يومي بكلمات الأمل كي لا أسقط في بئر العذاب...

وعندما وجدته مرة أخرى، قلت لنفسي: إن الفرصة لم تناسبني كما الآن كي أعيد دوزنة إيقاع قلبي الذي نكص على عقبيه، وأعيد بناء جدران روحي التي انهارت.

آمنت أنه القادر على أن يطفئ شعلة عطشي إلى الحنان وآمنت به رجلا فوق الاحتمالات المتوقعة من الحب.

وبعد أوجاعي السالفة ها هو ذا حزن آخر يفيض عن أحزاني. والرهان الذي راهنت عليه وعلقت سعادتي على وجوده في حياتي كسرني، وقطر في حلقي قطرات من وجع.

في ذلك المساء، منذ أكثر من شهرين تقريبا على لقائنا الأول...

ذهبت للقائه بذلك الفرح الطفولي المشاغب، وبذلك الوله الفاتن. بعدما جلست أمامه وقبل أن يقول كعادته أنه اشتاق إلي، تسلقت نظراته ملامح وجهي وداهمني ببرود قاتل يقول: "لدي شيء مهم أود قوله

لك". عيناي ظلتا معلقتان إلى شفتيه، قلبي إلى صوته.. ماذا سيقول؟ كان صخب صمته يخيفني يملؤني بغربة سحيقة، وكان صوت الأفكار المختلطة، والمرتبكة التي تتقازف في رأسي يملأ أذني طنينا..

قلبي أخذ يخفق بشدة عندما كانت كلماته تتهادى إلى مسمعي، ووقفتُ على الخط المتأرجح بين الذهول وبين الصدمة، بين الصمت وبين الكلام. صفعتني كلماته ألف صفعة...نحرني بسكين حاف، وتركني أتمرغ في دمائي الحارة. سألته وقد غصت كلماتي بالوجع: ولماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟ لماذا اليوم؟

- مريم اسمعيني جيدا وافهميني أرجوك، أنا لم أقل شيئا منذ البداية لأنني لم أرد أن أخسرك رغم أنني حاولت في مرات كثيرة لكنني جبنت. كل شيء كان معدا وجاهزا قبل.. قبل تلك الرسالة أي قبل أن تعودي إلي، وقفت بينكما حائرا صدقيني، واحدة جعلتها تحلم بالبيت والأولاد والأخرى وجدتها بعد أن فقدتها. كانت علاقتنا ضربا من المستحيل يا مريم. أنت تزوجت وأنجبت وأنا كنت على وشك الزواج. والآن لم يعد بإمكاني إعطاء مزيد من الأعذار للتأجيل. لكن يمكننا أن نبقى كما نحن أعني أن أراك من حين إلى آخر أو كل يوم إن شئت، فأنا لا أستطيع أن أستغني عنك.

اندفعت في حلقي غصة مريرة، كأن قطعة من الزجاج تقف في جوفي، كان كل شيء من حولي مغطى بالضباب والسواد.. حاولت جاهدة رفع جفنيّ المجهدين فنظرت في عينيه في وهن وأنا أقول:

- كما قلت علاقتنا ضرب من المستحيل ليس فقط لأنك على وشك الزواج، بل لأنني امرأة مطلقة وأم لطفل، وأنت لا يمكنك أن تربي طفلا ليس من دمك. قلها، هيا قلها ولا تخجل. ليس الخطأ خطأك بل خطأي أنا.. أنا التي حلمت بأحلام أكبر مني.

- ليس هذا ما..

دون أن أترك له المجال ليتمم حديثه، حملت حقيبتي وخرجت من المقهى مشدوهة من هول كلماته الجارحة التي أتت على أخضر أحلامي ويابسها..

كان الكون من حولي غارقا في العدم واللا جدوى..

كان العالم الذي بنيته ينهار فجأة، وبدون رحمة أمام ناظري..

وكانت الآمال التي عولت عليها تضمحل أمامي..

مشيت بخطوات متعثرة..وحزن يتغلغل في أعماقي ويدمي قلبي. ركبت أول سيارة أجرة لمحتها أمامي ومضيت أجر ورائي خيوط الانكسار.. لا هدف أمامي سوى الهروب من نفسي المبتلة بالدموع. هذا هو الحب الذي وهبت له كل حياتي وطاقتي وعنفواني؟ هذا هو الأمان

المفقود الذي كنت أعزي به روحي في لحظات تذكرها لجرحها الغابر؟ بغتة تخلى عني بذريعة الواجب والتقاليد. يحز في نفسي إهمالي لواجبي اتجاه ابني وجريي وراء مشاعري التي كانت كالمهر الحرون. ليتركني في منتصف طريق البدايات ألتفت ذات اليمين وذات الشمال..

لم أدر إلا وسيارة الأجرة تقذفني في القرية أنا وأحلامي المهدورة...

***

وضعت رأسي على المخدة وأخذتني الأفكار..

"ماذا بك؟ هل يحتاج الأمر إلى كل هذا التفكير؟.. هل تستطيعين أن تلعبي هذا الدور الذي لم تتوقعي يوما أن يعرض عليك؟".. "أي دور تقصدين لم أفهم؟".. "دور العشيقة التي تخطف الزوج من زوجته، يا له من دور مبتذل وحزين ! فيه الكثير من التضحية والمذلة".. "من ستكون الضحية؟ ومن المتهمة في هذه الحالة أنا أم هي؟ أم كلانا؟".. "المهم أنك ستكونين مجرد عشيقة.. أفهمتني؟ عشيقة لا أكثر".. "لكنني أحبه.. أحبه..."

اختلطت الأمور علي. وكأن بداخلي ذاتين تتصارعان. وكل منهما تحاول إقناع الأخرى بمنطقها المخالف. منطق القلب ومنطق العقل المتخاصمين أبدا. أريد أن أوقف هذا الهذيان لكنني لا أستطيع. أشعر أني مستلبة الحواس والإرادة.

منذ عودتي من ذلك اللقاء الحزين جدا ! الضائع جدا في شوارع الخيبة. وأنا أتأمل حياتي بماضيها وحاضرها. مختلف التجارب التي مررت بها للآن سلسلة كوابيس لا تنتهي.. كل كابوس يوصلني للآخر. بدون أن يترك لي فرصة لاسترجاع أنفاسي المتلاحقة...

أسترجع تفاصيل لقاءنا أنا وعماد وبدون وعي مني أتذكر ما قاله لي عدنان يوم زارني في القرية "ماذا ستصبحين من بعدي. عاهرة." قلت لنفسي:لا، لا يمكنني أن أعيد مأساة أمي. لن أبني سعادتي الوهمية بتحطيم امرأة أخرى.

لا أعلم كم مضى من الوقت قبل أن يغافلني النوم.

عند استيقاظي أحسست بالحمى تنهش أوصالي ككلاب ضالة، وبألم وقشعريرة في ضلوعي. فتحاملت على نفسي لأنهض، ثم ارتديت معطفي وذهبت لمستوصف القرية، هناك قابلت الدكتور فأعطاني بعض الأدوية، ومن حسن حظي أنني استطعت الحصول على شهادة طبية لمدة أسبوع كامل.

قضيت النهار بأكمله وأنا مستلقية في فراشي أحدق بسقف الغرفة بدون حراك. كنت مستسلمة بالكامل لهواجسي، أما باب الحيرة والأسئلة العصية فكان مشرعا على آخره...

12

عشت أياما رهيبة...

منذ أسبوع وأنا أعاني من صداع حاد في رأسي و أرق حرمني الاستمتاع بلذة النوم العميق. وفي هذه المدة الوجيزة فقدت الكثير من وزني.

كنت أقضي الساعات شاردة في الوجود والعدم، أقلب أفكاري على جهات مختلفة. وحينما أتعب أقف خلف نافذة الذهول أتفرج على النساء والأطفال والرجال من وراء الزجاج. يصلني ضجيجهم و كركراتهم لكنها لا تثير في أي حماس.

كان يومي طويلا.. طويلا جدا بدون نهاية. ولم يعد هناك ما يغريني بالخروج أو التحدث مع أحد. في الليل أسهر مع النجوم أناجيها، بينما أطارد دخان خواطري.. وساعات كثيرة تنهمر آلامي كالشلال فلا أقوى على إيقافها.

حينما يكون الإنسان مريضا يشعر فجأة بأنه عاجز، ووحيد أمام جبروت المرض وقسوته. فتبدو له الحياة تافهة لا تساوي شيئا. هذا بالضبط ما كنت أحسه وأنا مكومة كسيرة على فراش المرض.

طوال الليالي الماضية، كانت تأنسني صباح بصوتها القوي والعذب وهي تشدو في غرفتي: "خليك يا قلبي قد التحدي وانسي زمانو نساه نساه وفوت وعدي"

كانت هذه الأغنية تمنحني قوة عجيبة على تحمل الأوجاع التي ألمت بي. بل تعطيني طاقة هائلة على المضي قدما...

هل سأكون أنا أيضا قوية في وجه التحدي الذي رفعته أمام أوهامي؟

هل سيطاوعني قلبي ويمشي معي دون أن يلتفت وراءه ؟

كما كانت الفوضى تعم المنزل، كانت أيضا فوضى المشاعر والأفكار تتزاحم داخلي، فعدا عن الوحدة واليأس اللذان طوقا أيامي، كنت تعيسة وأنا أجبر قلبي المفطور على نسيان كل شيء والبداية من جديد. قسوت كثيرا على نفسي وأنا أمنع حنيني من أن يضعفني في آخر لحظة، وأنا أتعود على غيابه هكذا بدون إنذار مسبق، بعدما تعودت على حضوره الجارف في أيامي.

تمنيت حقا لو لم أقابل عماد، لو لم أبحث عنه في دروب الماضي. لو ظلت قصتنا كما كانت في ذاكرتي قبل أن تتحول إلى مصدر لآهاتي.

كنت بعد كل موجة يأس تكبلني وأنا مع عدنان أمني نفسي بأنني لو كنت تزوجت عماد لتجنبت المتاهات التي تهت فيها تلك السنوات،

والآن أقول ربما لو كنت سعيدة في زواجي لما احتفظت أصلا بجرعة حب من قصتنا سويا ولما قاسيت جراء الأماني الضائعة.

هكذا هو الإنسان، تحكمه كلمة "لو" وتستأثر وحدها بجعله يتحسر على ما يعتقد أنه ضيعه، فيصير ما تلاها هو الحلم الذي لو تحقق لكانت حياتنا على ما يرام.

13

بما أنني كنت قد أهملت ابني طوال هذه المدة الماضية، فقد حاولت تعويضه -ولو نسبيا-عن إهمالي وانشغالي غير المقصود عنه.

خرجنا معا في نهاية الأسبوع للتنزه. أخذنا معنا كرة، وسندويشات، ومظلة تقينا قسوة الشمس. ذهبنا مشيا صوب (سد الوحدة) هذا المكان الأسطورة، الساحر بتضاريسه، وخضرته الخلابة.

وأنا أتمشى ممسكة بيد طه بمحاذاة مياه السد الغائرة. شعرت بهدوء نفسي عجيب، بسكينة تزحف رويدا رويدا صوب خلايا جسدي الواهن. قضينا وقتا مسليا: لعبنا بالكرة، وجرينا، وضحكنا من الأعماق...

بعد يوم حافل بالنشاط عدنا إلى منزلنا الدافئ. خلد طه للنوم في حضني فور وصولنا. لا إحساس أجمل من إحساس الأمومة! هكذا حدثت نفسي وهو ينام بين يدي باسترخاء. وأنا أنظر إليه تذكرت كيف كانت تهوم في رأسي أفكار متناقضة حين تأكدت بأنني حامل، كنت ساعات كثيرة أفكر في الإجهاض. بينما أقتنع في بعض اللحظات أنه لم يكن علي المغامرة بالإنجاب في ظل الظروف التي كانت تحيط بي. فأندم

على وجوده في حياتي وأنا أحس بأنه يربطني بعدنان برباط وثيق لا أستطيع فكه.

لم أكن أستطيع أن أصارح أحدا بحقيقة شعوري عدا صديقتي هيام التي كانت تنصحني باتخاذ قرار حاسم وفوري. وأن أتحمل في النهاية مسؤوليته مهما كان. أما الآن فأنا متأكدة من أن طه قطعة فرح وهبتها لي السماء في يوم رمادي غائم وحزين.

***

مرت الأيام بسرعة.. أو هكذا يخيل إلي.

ولأقل أنني تعودت على حياتي التي تأقلمت معها بشكل إيجابي، فتصالحت مع ذاتي ومع أخطائي وهفواتي.

تأقلمت مع وحدتي التي جعلتها فرصة للقراءة والتأمل والتفكير..

تعودت على المنعطفات الحاسمة، التي تغير منحى الحياة من اتجاه إلى آخر. إذ قد يباغتك في أي لحظة حدث مصيري يقلب عالمك الوهمي الذي ركنت إليه طويلا رأسا على عقب..

لا يمكننا أن نحصل على كل ما نريده، أنا اقتنعت بهذه الفكرة، واقتنعت أيضا أنه يجب علينا التمسك بأحلامنا لأخر رمق، وأن لا ندع أحدا ينتزعها منا مهما كان السبب.

كل يوم يمر أشعر بأن أشياء صميمة في كياني قد تغيرت تركيبتها، وبأنني شخص مختلف عما كنته...

كل يوم يمر، أزداد اقتناعا بكل الخطوات التي خطوتها...

كل يوم يمر، تتفجر في ينابيع الأمل والإرادة...

14

علمت من أمي أن عدنان تزوج أمس. لم أستوعب كيف كان بإمكانه أن يمتلك القدرة على المراوغة والتخفي خلف الأقنعة: أن يبذل جهدا في سبيل استرجاع بقايا علاقتنا وفي نفس الوقت يهب للارتباط بأخرى. لم أشعر أبدا بالغيرة، أو بالندم لأنني رفضت العودة إليه، ببساطة لأني أعلم أن كل ما يهمه هو المال؛ فقد كان يعرف أنه إذا خسرني سيضطر لدفع النفقة لهذا السبب كان يجري طوال الوقت لإقناعي بالعدول عن قراري. أقول لا يهمني ما يفعله بحياته، كل ما هنالك أني أحسست بالظلم والقهر عندما سمعت الخبر.

كان بإمكان عدنان أن يبدأ حياته من جديد في الوقت الذي يشاء ومع من شاء دون أن يخسر شيئا وفي مقابل ذلك علي أن أدفع الثمن غاليا فقط لأنني امرأة ! كرهته في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى، وكرهت أكثر هذه القوانين الظالمة أبدا.

أما بخصوص قصتي مع عماد، فيمكنني القول بعد أن هدأ ما كان يغلي داخلي، إن تعلقي به كان منطقيا في ذلك الوقت بالذات، لأنني كنت

كريشة في مهب الريح، كنت هشة وضعيفة.. وأعترف أيضا أنني انجرفت مع تيار عواطفي، المتعطشة للمسة حانية تمسح عن روحي آثار تعب سنين.

مأساتنا أنا وعماد، أن كل واحد منا بحث عما ينقصه في الآخر. فقد كان بالنسبة إلي فرصة ضائعة حاولت استعادتها رغما عن أنف القدر.

أما هو فكان أنانيا بما فيه الكفاية ليخفي عني حقيقة خطوبته وزواجه الوشيك.

وبعدما تعذبت أياما طويلة وأنا أمنع يدي من أن تطلب أرقامه، وقلبي من أن يخفق باسمه وأنا على حافة الحلم في فراشي الصباحي.

وبعدما قاسيت المر وأنا أحاول جاهدة مسح رائحة صوته، و نظرات عينيه من ذاكرتي.

ستنزلق، صورته ببطء فوق سطح ذاكرتي وتهوي على الأرض لتذوب كالجليد..

سأنساه كما ننسى تفاصيل حلم رأيناه في الليل..

وأنا ممتلئة بفوضى المشاعر والأفكار. و أهيم في اللاجدوى كما لم أكن من قبل، لم أكن لأصدق أنه بين طريقين مختلفين، كان هناك

طريق ثالث بانتظاري. وبين معاناة، ووعد بالحب سأعثر على ذاتي المفقودة في صحارى الشك والحيرة.

جفاني النوم. فجعلت أضفر جدائل أفكاري جديلة إثر جديلة. ولا أدري. منذ متى؟ ولا كيف؟ انبثقت في ذهني أفكار بخصوص مشاريع قادمة..

***

يا له من صباح تعس !

يا له من نحيب حاد في دواخلي..!

"وجدوا جثة مشوهة رماها البحر هذا الصباح يشتبه فيها أن تكون لهيام، سأذهب لرؤيتها في المستشفى" قالت لي جدتها وهي تبكي وتنوح عندما اتصلت بها هذا الصباح.

تمنيت أن لا يكون ما سمعته صحيحا، تمنيت أن تعود إلي وتشاركني همومي، أفراحي وأتراحي مثل الماضي.

هل يمكن حقا أن تكوني يا هيام قد استسلمت لنداء الموت أم أن الموت هو الذي لبى ندائك هذه المرة؟

هل يمكنك أن تندفعي هكذا، دفعة واحدة في جوف المجهول دون أن يغريك أي شيء بالبقاء؟

مشهد جثة هيام وهي ملقية كشيء مهمل على الصخر تئن من البرودة والزرقة والوحدة الذي أحاول جاهدة إبعاده عن مخيلتي، يعيد إلي ذاكرتي مقالا كنت قد قرأته في إحدى المجلات المتخصصة في علم النفس.. تقول الدراسة إن الصفات التي يتصف بها المبدع كالقلق، والمزاج المتقلب تصاحبها أفكار سوداوية، وأحيانا نوبات من الجنون. تؤكد أيضاً إن الحالات المزاجية المختلطة التي يعاني منها الفنان والتي تكون سببا في استثارة انفعالاته وذكرياته، تشبه كثيرا العوامل الرئيسة التي تميز مرض الهوس الاكتئابي الذي يجعل الإنسان المصاب به تراوده فكرة الانتحار حد الامتلاك.

فكرة احتمال انتحار هيام تملؤني كآبة ورعب لا حد لهما، لا يمكنني تخيلها إلا فراشة تنشر الألوان أينما حلت. أقنع نفسي أنها مختبئة في مكان ما كعادتها في مفاجئتي، فقط لتتأكد من أنني أحبها واشتقت إليها، وبعد ذلك ستبزغ كشمس مشرقة.

كانت ترقد في دواخلي جذوة أمل أن لا تكون تلك الجثة لها، أن لا تكون هيام قد ضعفت في آخر لحظة مهما كان السبب قويا.

فور سماعي بهذا الخبر الصاعق، اتصلت بالطبيب النفسي الذي كان يعالج هيام والذي كنت أنا أيضا قد لجأت إليه قبل طلاقي. سألته إن كانت تبدو على هيام أي بوادر تنم عن ميلها لفكرة الإنتحار. لم يعطني جوابا شافيا. لكنه قال لي جملة لن انساها أبدا " لقد كانت هيام تمشي باتجاه حتفها منذ سنوات و لم يكن بإمكانها أن تتأخر عنه."

سألته أيضا عن إمكانية مساعدتي لتأسيس جمعية. لأني كنت على علم بعمله مع عديد من الجمعيات.

هل أستطيع أنا دخول غمار العمل الجمعوي؟

بالأمس قضيت الليل أفكر في هذه الخطوة التي ستكون عنوانا جديدا وبداية مهمة لحياة قادمة..

تجربتي في الزواج والطلاق فتحت عيني على أمور عدة، أولها: الحيف الذي يمارس باسم القانون على المرأة بصفة عامة والمرأة المطلقة خصوصا، مما جعلني أتساءل طوال هذا الوقت الذي قضيته متلفحة همومي: لماذا تسقط الحضانة عن الأم إن هي تزوجت، في حين أنها لا تسقط عن الزوج رغم زواجه؟ لماذا على المرأة المطلقة أخذ موافقة زوجها للسفر خارج الوطن؟ لماذا؟ .. ولماذا...؟

هذه الأسئلة من بين أسئلة أخرى كانت تؤرقني وتعبث براحة بالي. فألهمتني في آخر لحظة فكرة لم تكن لتدور بخلدي لولا تلك الظروف التعيسة التي مررت بها.

قررت بتصميم نافذ: تأسيس جمعية للدفاع عن النساء ضحايا العنف وإنشاء مركز للاستماع لهن.

قلت بإصرار وفرح:

-سأناضل ضد العنف والظلم والقهر، سأناضل ضد هذه القوانين الجائرة، وضد كل ما يمكنه أن يحط من قدر وكرامة المرأة..

قلت لنفسي: غدا، نعم غدا سأعمل على هذا المشروع. فكرت: ماذا أسمي الجمعية؟ سأسميها: "جمعية هيام للنساء ضحايا العنف".

أوراق من مذكرات هيام

سأسمي هذا الجزء: **الفن الصعب**

كان الظلام يسدل ستائره على المكان، و كنت أهرب وأجري تارة في ممرات طويلة لا تنتهي، وتارة أخرى في فضاءات شاسعة لا حدة لها.. أجري بكل طاقتي دون توقف. وأشخاص بملامح مبهمة يجرون خلفي، كانوا يريدون الإمساك بي. ولا أعرف السبب. كل ما أدركه أني خائفة.. خائفة جدا لدرجة الرعب.

نفس الحلم يتكرر كل ليلة، وكل ليلة أنهض مفزوعة من فراشي إن سمعت أي نأمة، أو أي صوت. حتى أخال أن قلبي سيتوقف جراء اضطراب دقاته التي تشبه قرع طبول إفريقية مجنونة..

ظلت ذكرى طفولتي المغتصبة والمعذبة ترافقني طيلة حياتي، فإلى الآن لا زلت لا أستطيع أن أهنأ بنومي بسبب الكوابيس التي تقض مضجعي كل ليلة.

كان هذا الخوف الذليل يؤلمني، يصب لعناته علي، وبينما كنت أمشي على أطراف أصابعي بمحاذاة أحراش الذكرى وأحاذر أن لا أوقظها من إغفاءتها، يوما بعد آخر كنت أحس أني أقترب بخطوات دؤوبة من ذلك الخيط النحيل الذي يفصلني عن الجنون.

آثار تلك الصدمات كبلتني منذ البدايات الأولى لمراهقتي بمرض نفسي مزمن، هذا المرض اللعين كان ينخر قلبي كالسوس ويحفر في روحي خنادق عميقة من الهوس. ظلّ شبح القلق والخوف والاضطراب يتربص بخطواتي كلص: كنت أشعر بأنني سأموت في أي لحظة، صوت الموت كان يتردد صداه في روحي. أواه... كم عانيت ! من الصداع والأرق والغثيان.. كم تعذبت وأنا أفقد قدرتي على التركيز وأتعرق، أختنق وأرتعش في مواقفي اليومية دون أن يشعر أحد باللهيب الذي يحرق أعماقي. كم عانيت من نوبات الذعر والانهيار النفسي التي عصفت بقدراتي العقلية!

أتساءل:

لماذا نخفي رعبنا، وهوسنا ونحاول أن نظهر للعالم متماسكين أقوياء بينما لا شيء سوى الخراب ينمو ويتراكم في أرواحنا؟

كما كنت أنا أخفي جبني عن الأعين، وفي دواخلي تقبع طفلة مهشمة الفؤاد. في داخلي طفلة لم تكبر أبدا.. أكون طفلة حين أفتش عن يد دافئة كبيرة كالسماء تمحو عني رعب السنون.. وحين أتوق لنطق كلمة "بابا".. وحين أشتهي لمسة حنان.. وحين.. وحين..

رمقتني الحياة بنظرات مستهزئة متشفية لأني أحارب طواحين الهواء، لأني دخلت حربا فاشلة كنت فيها دوما الطرف الضعيف. ها هي الذكريات بصخبها الهادر، تخنقني بمنديل حاكته أيدي الوجع..

توفيت فاطمة اليوم، أمي التي تناسيت ملامح وجهها. ولأنني لا أعرف إن كنت أحبها أم أكرها ولأنها لم تكن بمنأى عن كل ما حصل لي، فقتلتني دون أن تدري.. فإنني لم أحزن لموتها لم أبك لم أتأثر لم أشعر بأي شيء.. لكنها بصمتها الأبدي أدمت قروح الماضي، ونكأت جروحي، وألبت علي همومي العتيقة، التي لم تستطع لا مضادات الاكتئاب ولا المنومات تخليصي من فورانها داخلي. كما لم تنجح السنوات التي قضيتها في العلاج النفسي في محو آثار العذاب النفسي. رغم جهود الطبيب النفسي في شرح أسباب المرض، وكيفية التغلب عليه.

لطالما كان قلبي محفوفا بالأشواك التي زرعها القدر أمامي. وأنا أخطو خطواتي في هذه الحياة اكتشفت كم كان صعبا علي أن أقاوم جحودها-جبروتها، وقسوتها علي. فكلما مضيت قدما توغلت في ملامح الوجوه التي اغتالت أحلامي ووأدت ابتسامتي، وما كان يعزي فداحة معاناتي أنه بقدر ما كانت هناك وجوه تحرض قلبي على اليأس كانت وجوه أخرى ترسم بسمة الأمل على شفاهي.

لكن ماذا تريد مني هذه الحياة المهووسة التي كبلتني بين جدران العقد الأبدية لتطاردني بمرض مزمن حتى اللهاث الأخير؟ ماذا تريد مني بعد كومة الخسائر التي تشابكت خيوطها؟ لو نستطيع فقط بكبسة زر محو حياتنا نهائيا، لربما هونا علينا الكثير من العذاب.

هناك من يجيء العالم وهو خاسر منذ البداية لذلك تكون سلسلة الهزائم التي سيعيشها بعد ذلك مجرد جرة قدر مخبول قرر أن يواصل ما بدأه في الأول...

لأعترف لقد انهزمت..، هزمتني الحياة بعد أن خذلتني، وبنت أمامي سدا من الآهات. كنت على يقين من أن عمري قصير كعمر الزهر ! فرغم عشقي للحياة إلا أنه لطالما جذبني الموت وأغراني بغموضه وسحره.

ورغم أني كنت أقنع نفسي أن التراجع سمة الجبناء إلا أني استسلمت لقدري الذي تتساوى فيه الخسارة بالربح. الموت بالحياة. الحب بالكراهية. الشجاعة بالجبن.

تلك البذرة السامة التي نمت داخلي طوال هذه السنوات، تفرعت أغصانها ومدت جذورها في أعماقي، وغدت لوثة مدمرة تلاحقني منذ الأزل: إنها داء الاستسلام للموت..

أقول يجب أن تكون لدينا الشجاعة للانسحاب في الوقت المناسب، أن نمارس الفن الصعب..-كما قال نيتشه- فن الرحيل عن الدنيا في الوقت المناسب.

ليس أمامي إلا أن أمقت عالما لم يهبني سوى القلق، الألم والذكريات المريضة...

شذرات

سيلفيا بلاث

أتفق تماما مع سيلفيا بلاث حينما قالت: "إني متوحدة كالعشب. ما هذا الذي أفتقده؟،هل أعثر عليه يوما، أيا يكن؟،" ما أمرّ! أن لا تعرف ما الذي ينقصك؟ والأشد مرارة أن لا تجده.

سؤال لا غير...

ماذا تساوي هذه الحياة بدون يد تضمد جراحك، وتمسح عن روحك همومها كلما وخزها الحزن ؟

لو...

لو لم يكن البؤس في الحياة كيف كانت ستكون يا ترى؟ !

الموت والحياة

يتجاذبان لحظات الأيام كحبل مشدود من الطرفين بقوة وعنف.

2 بعد منتصف الليل

لم أعد أحتمل.. باغتني الأرق مجددا، وهجمت علي الذكريات كوحش مفترس ومزقتني...

هذا الألم المضني لا يتركني.. أسمع أصواتاً مختلطة.. صهيل فرس يريد الانعتاق والانطلاق..

6 صباحا

آن الأوان لأستريح وأريح روحي المعذبة.. آن الأوان لتهدأ هذه الدوامة الهائجة في عروقي أبدا!

سأمضي.. سأمضي.. إلى أن أعثر على السلام الذي لم أنعم به يوما.. سأمضي إلى حتفي المنشود..

إلى أن أجد الهدوء الذي طالما تمنيت أن يرسي سفنه على مرافئي مقابل ضجيج الضوضاء العميقة التي تعذبني كل ليلة. وكل لحظة.

تتزوج مريم بن يحيى من عدنان التازي، فتبدأ سلسلة معاناتها الجسدية والنفسية جراء هذا الزواج...

تحاول أن تتحدى واقعها وتترك كل شيء يشي بالخراب خلفها، فتلجأ للعشق هربا من ذكرياتها المشتعلة والأفكار التي تهوم في رأسها، ونتيجة للخيبات المتكررة التي تجرعتها خيبةً إثرَ خيبة تكتشف أنها كانت سجينة جدران من الأوهام.

ستعثر في النهاية على ذاتها في طريق آخر لم تكن لتبصر نوره لولا التجارب التي مرت بها.. وإيمانها بغد افضل تستحقه هي وكل امرأة ..

رواية تجتمع فيها الرغبة في التحرر، والتحليق، والتعالي على الواقع مع الإرادة في مجتمع مأزوم يعاني الكبت والازدواجية القيمية والتجهيل...



سلمى بو صوف

- كاتبة مغربية
- أستاذة الفلسفة
- لها العديد من المشاركات والندوات الثقافية
- لها مقالات منشورة ونصوص أدبية في العديد من الصحف الورقية منها جريدة الإتحاد الإشتراكي المغربية، ومجلة الموجه الثقافية والمواقع الالكترونية كصحيفة قاب قوسين، وغيرها من المواقع المعتمدة ثقافياً.

ISBN 978-9953-594-96-5
9 789953 594965

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
تليفون: 359788 3 00961 فاكس: 241032 7 00961
ص. ب: 11/3847 بيروت - لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com